
كتاب الشهر
محمد صبيح

الغلاف

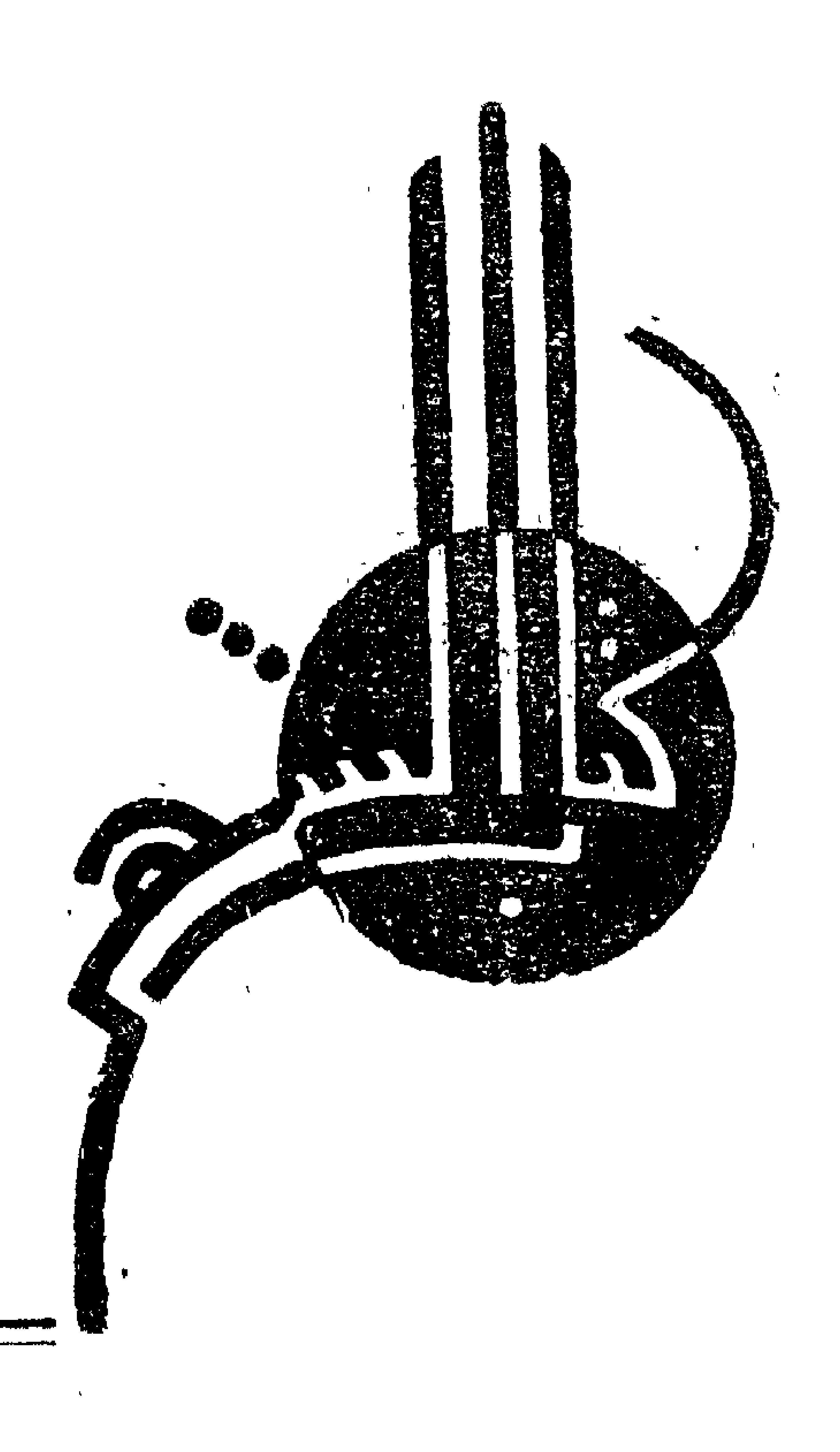
للأستاذ

عبدالسلام الشريف

استدراك

ورد في صفحة ١٢٢ أن المغفور له جلالة الملك فؤاد وافق سعد باشا على طلباته الأربعة ، وهذا ما قاله أهم مصدر أرخ حياة سعد — وهو الأستاذ العقاد

ولكننا بعد طبع الكتاب رجعنا إلى المصادر المختصة فتحققنا أن سعداً عرض على الملك طلباته إلا أن هذه الطلبات لم تنفذ ، وما يزال العمل منذ ذلك الوقت سائراً على أن يكون النظر في مسائل الأزهر ، ومناصب القصر ، ومناصب السلك السياسي ، والرتب والنياشين ، من اختصاص القصر



فؤاد الأول



ملتزم الطبع والنشر أصحاب
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ما أعظم الحرج ، وما أكثر التردد الذى عانيته ، وأنا ادون هذه السيرة . والذى كان يعاودنى خلال سبع سنوات مضت كلما عزمت على إنجاز هذا العمل .. ذلك لأن تدوين التاريخ على النحو الذى أقدمــه للقراء فى كتب الشهر ، عمل متعب مضن . فأنا أجمع فى صفحات محدودة قليلة ، ما كان يمكن أن ابسطه فى اضعافها عدداً وحجماً . ولأمر ما كتب سعد زغلول لأحد أصدقائه رسالة مسهبة ، واعتذر عن هــذا الاســهاب ، بأنه لم يجــد لديه وقتاً للايجاز ! ! . .

ولكن ليس هذا سبب الحرج والتردد ، فقد أصــدرت قبل هذا الكتاب عشرات مثله . .

ترى هل تهيبت الكتابة عن فؤاد الأول لأنه ملك جلس على

عرش مصر ، كما جلس على نفس العرش من قبله أصحاب السمو والعظمة أبوه اسماعيل ، ثم أخوه توفيق، ثم أخوه حسين. ويتربع على كرسي الملك في مصر الآن ابنه الفاروق العظيم ، كما تقتسم تاج الأكاسرة في إيران ابنته الأمبراطورة فوزية ؟ ! .

لا أحسب أن هذا هو السبب .

فلم يعد التاريخ يخشى الملوك ، كما كان يخشاهم من قديم . وحقهم المقدس في الملك الذي كان يستمد في القرون السالفة من عزة الإله الهابطة من السماء ،أصبح يستمد الآن من إرادة الشعب الصاعدة إلى السماء .

لا . . ففؤاد الأول « الملك » لا تخيفني الكتابة عنه . ولكن فؤادا الأول « البطل » هو الذي أخشاه . لأن بطولته تملأ نفسي وتهز مشاعري من الأعماق . وسيؤنبني ضميري تأنيباً شديداً إن أنا قصرت في رسم صورة صادقة لجوانب هذه الشخصية العظيمة التي يسمح لي الظرف الحاضر بتناولها .

فقد فتحت بصري و بصيرتي على الحياة التي تحيط بي ، فإذا هي مطبوعة بطابع هذا الملك البطل ، ومهما حاولت أن أتخلص من تأثيره ، فلن استطيع . . كذلك لن يستطيع أي شاب من أبناء مصر عاش حياته على ضفاف النيل بين الحربين ، وفي ظل

المعهدين، وتحت تأثير المدرستين ، إلا أن يحس بثقل الدين الذى عليه لهذه الشخصية القادرة العاملة المريدة. .وقد ذكرت جريدة التيمس وهى تصفه : « إنه كان من أنشط وأذكى من رعوا التعليم العالى والدراسات العلمية المختلفة ، ومن أكبر من أعلو شأنها، ولكن معظم رعاياه كانوا شديدى الانهماك فى الحركة الوطنية[1] والسياسية ، وتقلبات سعر القطن ، فلم يتأثروا كثيرا بنشاطه هذا . . . » .

وهذا القول صحيح بالنسبة لمعاصرى الملك ، أو الذين ولدوا قبل هذا القرن إجمالا . . أما الجيل الجديد من المصريين ، فهو مدين له بشىء لم يشترك معه فيه غيره ، وهو التعليم فى الجامعتين المصرية والازهرية . . والتعليم العالى والخصوصى بصفة عامة. فمن هذه المعاهد — التى بناها فؤاد الأول حجرا حجرا كما سنرى — تخرجت مصر الحديثة ، وتربت الناشئة التى تحمل ، وستحمل فى مقبل الأيام مسئولية اضطراد النهوض والتقدم لهذا الشعب .

فإذا قلت إن الجهاد العلمى للملك فؤاد، قدصاغ العقل المصرى الحديث على طرازه،فأنت صادق ، وأنت لاتقول شيئا قليل الخطر .

وأما الجهاد الوطنى ، وشئون السياسة ، وأمور المال والاقتصاد — أو أسعار القطن كما عبرت التيمس — فلم تكن تشغل رجالات

عصره وحـدهم ، ولكن كانت تشغله أيضـا ، أكثر من أى مصرى آخر .

حقيقة لقـد مضى الزمن الذى كان الملوك يتربعون فيه على عروش السلطان ، ولايكافهم حكم الرعية أكثر من سيف مسنون ونطع ممدود ، وجـلاد احمر العينين مفتول الذراعين . . وعصبة من الحرس ذات بأس و بطش . . فهذه الأدوات لم تعد تقيم ملكا ، أو تدعم عرشا . و إنما يقوم الملك ، و تثبت دعائم العرش إذا كان الجالس عليه لا يستمد سلطانه من حقه فى الميراث فقط ، ولكن من كونه الوطنى الأول ، والعالم الأول ، والبانى الأول ، والمضحى الأول ، إذا احتاجت حياة الوطن إلى تضحية .

مضى عهد السم الأزرق ، وحل محله العمل ، والأرق والعرق ، والجهد المتصل . ولم تصبح صناعة الملك أسمى مايحلم به الحالمون، حتى لنرى وارث العرش بعـد السلطان حسين يتنحى لأن للتاج متاعب ومخاطر لا يستهين بها أصحاب العقول الراجحة .

ولقد أمضينا الآن حقبة ليست بالقصيرة فى ظل العهد الفاروقى ، مكنتنا من أن نلقى على العهد الفؤادى نظرة أكثر شمولا و إحاطة، وأصبح حكمنا الآن أصدق وأصح من حكمنا فى أثناء ملك فؤاد الأول أو بعد انتهائه مباشرة .

واستطعنا الآن أن نعلم بشواهد لا تخطىء ، لماذا أحب الملك الراحل مصر كما لم يحبها من قبله إنسان . .

استمد حبه هذا من علمه. فقد كان عقلا كبيراً بصيراً لا يهدأ ولا يستريح . وكان شديد العناية بتاريخ جده الكبير محمد على .

وجد أن محمد على مدين لمصر بهذا العرش ، أجلسته عليه بارادتها . فلما فكر فى أن يصون هذا العرش بجند من الألبان ، اخفقت تجربته إخفاقا أليما ، ولما حاول أن يؤلف من السودان — قبل إندماجه فى مصر — جيشا يؤدى هذا الغرض ، تكرر الفشل . ولما وكل إلى سواعد المصريين هذا العمل ، لم تصن هذه السواعد العرش وحده ، ولكن بسطت ظله ، ومدت صولجانه إلى الشرق الأوسط كله ، حتى صيرت البحر الاحمر وشرق البحر الابيض بحيرتين مصريتين .

هذا هو الدرس الذى وقف عنده فؤاد الأول ، وهو أمير ، واطال الوقوف . فلما ألقى القدر إليه مقاليد الملك عرف كيف يستفيد منه ، بل كيف يرد لمصر الجميل ، ويقابل الفضل الذى اسدته للبيت العلوى بفضل مثله بل يزيد . .

ولقد عملت عوامل كثير على حجب عواطف الملك فؤاد عن شعبه ، أهمها عنف الأعاصير التى كانت تجتاح سطح الحياة المصرية

فى أيامه . ولكن مصر كانت تحس بغريزتها توهج هذه العاطفة وتوقدها . كانت تحس بالهامها الخفى ، أن هذه الحياة النامية ، وهذه النهضة السارية ، إنما تتحرك بيد بصيرة ماهرة ، ولكنها غير ظاهرة ؛ ولم يقل أحد للجماهير إنها يد الملك فؤاد ، ولكنها ادركتها ببساطة ويسر ، ولمستها بغير مشقة أو إجهاد فكر . فلما أوشكت أيام الملك أن تنقضى ، كان شعب مصر — الشعب كله برجاله ونسائه وأطفاله — يتتبع برعب هذا الصراع المر بين إرادة الملك فى الحياة من أجل بلاده ، و بين هجمات المرض الفتاك ، فلما حم القضاء ، وأعلن الطبيب بكلمة موجزة لرئيس الوزراء [كان على ماهر باشا] أن الملك مات ، انتشر النبأ ، وكأنه الصاعقة تنقض على كل أذن ، وود هذا الشعب — كل فرد فيه — لو أنه فادى آلام الملك ، ثم حياته بروحه وروح أهله و بنيه . لأن كل إنسان أحس أنه فقد بفقده سنداً كان يتكىء عليه ويحميه . . فقد قوة وكفاية كانت تحرس كرامة هذا الوطن وتزود عن مواطنيه . . فقد ملكا له عند كل مصرى يد ، وله فى كل بيت ذكر ، وله على كل فرد دين .

وهنا تفجرت عواطف الشعب وهى تشيع جثمان الملك وتبكيه

وهنا . . وهنا فقط عرفت مصر أنها لم تفقد ملكا كالملوك، ولكنها فقدت بطلا كانت ترتجيه . .

وقد تحدث الواصفون عن جنازة محمد عبده وجنازة مصطفى كامل ثم عن جنازة سعد زغلول ، وقال الواصفون إن قلب مصر خفق فى هذه المواكب الثلاثة كما لم يخفق قبلها من قبل..وأضافوا الملك فؤادا إلى هؤلاء ، فقالوا اربعة .

ولكنهم يخطئون . فمصر التى بكت فؤادا ، إنما بكت بطلها الذى لم يعش معها كما عاش هؤلاء معها ، وإنما حجبته ظروف كثيرة عن الاختلاط بالشعب ، وإنما كانت تحس به وبأنه يندمج فيها بعاطفته أكثر من أى إنسان آخر .

كانت تبكيه ، لأنها عاشت معه فى الصور وفى الأنباء القليلة ، والزيارات الرسمية المقيدة ، وكان بودها أن تسمعه يتكلم فلم تسمعه ، وأن تشهده فى صدر محافلها بغير هذه القيود الثقيلة فلم تشهده . فلما قضى . . ألقى عليها الخطبة الأخيرة التى سمعها ضمير الشعب فهزته كما لم تهزه أبلغ الخطب وأفصح الآيات . وسار بين الناس فى رحلته الأخيرة ، فكان أقرب لكل فرد من نفسه ومن أمه وأبيه وصاحبته وبنيه .

وكل مصرى يذكر هذا اليوم ، ويذكر كيف بكى .

وكل مصرى يذكر كيف عادت العاطفة تتفجر مرة أخرى عندما عاد الشبل فاروق من دار علمه فى انجلترا ، وهى تحاول أن تقول له بكل لسان وبكل أسلوب من أساليب التعبير والبيان ، إننا فقدنا الأسد الذى كان يحمى العرين ، وسنرد دينه لك حبا وولاء وإخلاصا .

ومن هذه اللحظة عاش الشعب مع الملك ، وعاش الملك مع الشعب ، وهما وحدة لافاصل يقوم بين جزأيها .

وهكذا خدم فؤاد بلاده فى الحياة ، وخدمها فى الممات . فامتزج العرش والشعب ، وارتبط الراعى والرعية بما لم يسبق له نظير فى تاريخ البلاد . . وهكذا نظرت مصر إلى فؤاد فى الحالين ، ورأت بطولة صمته فى الدنيا ، ورأت بطولة حديثه فى الآخرة . فآمنت به ، ورفعته بين أبطالها إلى مقام الخالدين .

● ● ●

ونحن إذا نظرنا إلى تاريخ مصر الحديث نظرة محيطة شاملة، فاننا نجدها تبتدىء بمحمد على ، إذ لمع اسمه فى سمائها كالشهاب الوضاء . ولا نكاد نعثر على اسم له مثل هذا السناء المضىء غير اسم فؤاد الأول .

فقد حكم محمد على مصر ، فى وقت كانت البلاد فيه ضائعة

منسية بين مجموعة الدول ، فرفع اسمها ، وأعلى ذكرها ،وأخرجها من غمرة الاهمال والخمول إلى عالم الحيـاة الحرة الطلقة . وحدثت لمصر من بعده نكسة كادت تعود بها القهقرى إلى ما كانت عليه . فكان طب هذه النكسة على يدى فؤاد الأول ، الذى لم يعد بمصر إلى الصحة بعد المرض فحسب ، والأمان بعد الخوف فقط ، ولكن عهده أمد جذور الحياة لهذا الشعب بما نماه وقواه وأصلب عوده وصان وجوده .

فؤاد الأول ، هو اول جالس على عرش هذه البلاد ، حمل لقب «ملك» بعد أن انتزع هذا اللقب من حاكم المصريين بانتهاء عهد كليوبترا ، أى منذ ألفين من السنين .

فهذا لقب أضاعته كليوبترا واستعاده فؤاد . .

وهو أول ملك نظم أمته على أحدث طراز نظمت عليه الأمم فأوجد فيها الحكم الدستورى ، وأشعر الشعب بوجوده عن طريق الدستور الذى صيغ فى عهده على آخر ما وصلت إليه الشرائع المستنيرة الراقية . وبذا وجد الرأى العام المصرى ، ووجدت مسئولية الحاكم أمام المحكوم . . وما كان الأمر كذلك منذ سكن هذا الشعب أرض النيل حتى عام ١٩٢٣ . . .

وهو أول ملك وصل بلاده بالاسرة الدولية .

ففي عهده استقر سفراء مصر في عواصم العالم ، ومثلوا ملكهم وأمتهم ، وكان التمثيل قبلهم عالة على الغير ، أو ابن الصدف والمناسبات. ولا يستهين أحد بقيمة التمثيل السياسي في بلاد الغير ، لأنه دليل وجود الأمة ، ومشاركتها في المحيط الدولي بقدر ما تسمح ظروفها . وأهم خطوة من خطوات الاستقلال أن تشعر الدول بأن أمة من الأمم لم تعتمد على غيرها ، وإنما تعتمد على نفسها في تحقيق سيادتها وتنفيذ ارادتها ، وقد كان ينوب عنا فيما مضى ممثلو تركيا ، ثم ممثلو انجلترا . أما اليوم ، فمصر قادرة على أن تبعث من بنيها بالوزراء والسفراء يرفعون رايتها على المفوضيات والسفارات ويحققون شخصيتها الدولية على أحسن مثال .

وهو أول ملك لمصر ، وسع نطاق التعليم ، وفتح أبوابه للرائدين والرائدات من أبناء الشرق القريب والبعيد ، فاصبحت عاصمته مثابة لأبناء الأمم ، وتحققت في عهده زعامة مصر العلمية للشرق وهي أول الزعامات واسماها مكانا . . .

وهو أول ملك رعى معالم الحضارة ونماها ، وجذب إلى بلاده أنظار العلماء والكبراء وذوى المكانة المرموقة في كل مكان .

فهذه الصناعات الكبيرة التي وضع أساسها في أيامه ، وصلت بين حاضر البلاد وماضيها العتيد .

وهو أول ملك لمصر ، طاف عواصم الغرب ، وبهر بنيه بقوة شخصيته ، وسعة علمه ، ودقة نظرته ، فكان أعظم من مثل مصر الحديثة بين هذه الشعوب الراقية التي جهلتنا حتى عرفتنا عن طريق مليكنا .

وهو أول ملك لمصر ، تكامل في عهده نظام الأحزاب السياسية ، التي أوجدت في البلاد — وللمرة الأولى — رأيا عاما حيا قويا يقظا متتبعا لسير الحياة في الداخل والخارج .

وهو أول ملك لمصر ، نمت في عهده الصحافة ، وحركة التأليف ، والمجامع والمؤسسات العلمية الرسمية والأهلية ، بما لا يوجد له نظير إلا في أرقى بلاد العالم ، وأثبتها قدما في الحضارة والرقي .

هذا هو رأي المؤرخ المنصف .

فقد وضع محمد علي الأساس ، وجاء حفيده فؤاد من بعده ، فبنى على هذا الأساس ، وأوثق البناء .

● ● ●

ولكن فؤادا الأول — رحمه الله رحمة واسعة — لا يقر هذا التعريف بتاريخ مصر الحديث ، وينكره إنكاراً شديداً .

فهو لايريد أن يصل عهده بعهد محمد على مباشرة ، ويرى من الظلم والتسرع أن يهمل عهــد أبيه اسماعيل . فهو ينظر إلى اسماعيل كالبانى الحقيق فوق الأساس الذى وضعه مؤسس الأسرة العلوية . هو يرى أن عهده ـــ أى عهد فؤاد ـــ لم يكن إلا اكمالا لجهود اسماعيل ، وسيرا على نفس الخطوط التى وضعها أبوه .

وفؤاد الأول يرضى التاريخ مرة ، ويرضى عاطفة البنوة مرتين. يرضى التاريخ ، لأن رأيه يعتمد على حقائق كثيرة يعلم الناس بعضها ، ويعلم هو من أمرها ما لا يعلمه أحد .

ويرضى البنوة ، لأنه فى الحقيقة تتلمذ على اسماعيل أكثر من جميع أبناء اسماعيل . فقد عاش طفولته وصباه وصــدرا من شبابه تحت رعايته ، وسمع منه ، وقرأ عنه ، ما لم يسمع أو يقرأ مثله إنسان . فإذا امتلأت نفسه بالحب لأبيه ، وبالغضب على من يجهلون قدره ويشوهون صحيفته ، فهو ابن صادق العاطفة .

ونخطىء أعظم الخطأ إذا نحن حللنا شخصية فؤاد ، ونفذنا إلى أعماق تاريخه ، ثم أهملنا تأثير اسماعيل عليه . وسنرى فى صلب كتابنا كيف كان فؤاد أمينا على تاريخ أبيه ، حريصا على أن يحقق فى عهده مالم يتمكن من تحقيقه اسماعيل . فهو قد بر بالأبوة ورعى حقها ، وأدى الواجب عليه أكمل اداء .

وإذا نحن أخذنا بالنظرة « الفؤادية » إلى تاريخ مصر الحديث ، فسنجد فى معظم الحركات الكبرى التى تمت فى السنوات العشرين إلا قليلا التى حكمها الراحل الكريم، أصلا ثابتا فى عهد اسماعيل . وعلى هذا الهدى سنسير، مع عدم إهمال العوامل الأخرى التى أوجدها تقدم العصر وسير الزمن إلى أمام سبعة وخمسين عاما هى التى فصلت بين أيام اسماعيل وأيام فؤاد . . .

●●●

ولقد كان فؤاد الأول ملكا عالما . ومن الوفاء لذكره ، أن نرعى أمانة العلم وأن نخفى عاطفتنا حياله قدر مانستطيع . وسنجد بعد فراغنا من هذا البحث أن العلم والعاطفة يجتمعان معا ، ويمتزجان كأنهما وجهى الدرهم ، يكمل أحدهما الآخر، أو لا يتصور أحدهما من غير الثانى . . .

وهذا دين نؤديه . . وكان واجب الأداء من سنين . وسنضاعف الأداء ، ونزيد فى أجزاء هذا الكتاب عندما يأذن الله وتسمح الظروف .

●●●

وتأليف كتاب عن « فؤاد الأول » يحتاج للرجوع إلى

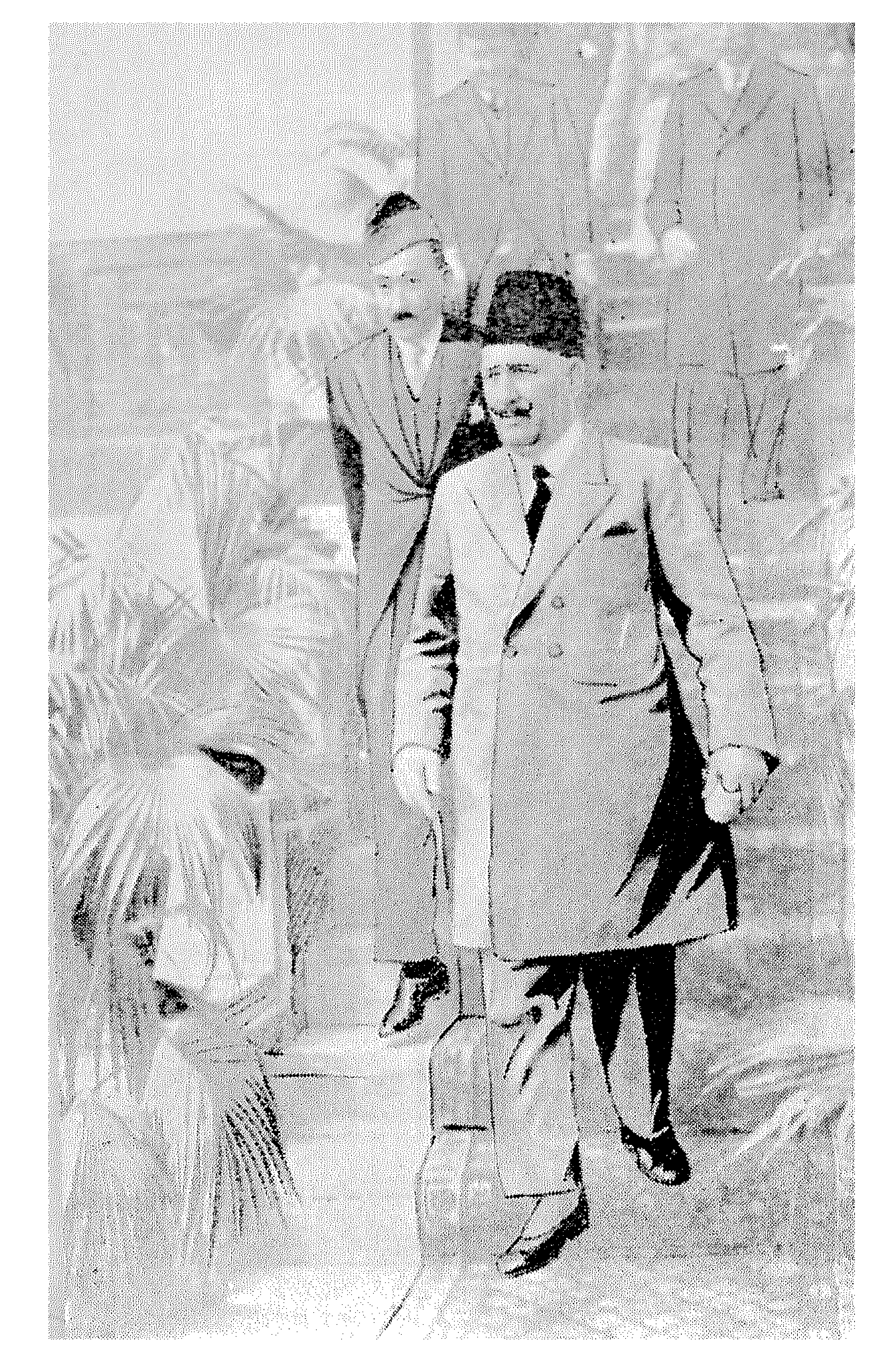
مصدرين : أولهما صدور الرجال الثقاة . وثانيهما بطون الكتب والمذكرات .

أما ثقاة الرجال ، فقد كان من حسن حظى أن تحادثت مع من أعلم ويعلم الجميع أنهم خير من عرف المليك الراحل ، لأنهم عملوا معه ، واستودعهم بعض سره ، وكانوا أهلا لثقته طوال صحبتهم له . ولولا أن ظروفهم ، وظروف مصر الحاضرة ، لاتسمح بأن أذكر أسماءهم لذكرتها . ولكن للقراء فطنة سيدركون بها من هم أعوان الملك الراحل الذين يمكن الرجوع اليهم . وعندما يأذن الله باذاعة أسمائهم ـ وعندما يأذن كذلك باذاعة كل ماعلمناه منهم على وجهه دون إيجاز ـ فسيقدر الجميع أى خدمة أدوها للتاريخ . .

أما الكتب والمذكرات ، فهى كثيرة ، إلا أن الهام فيها قليل ومع هذا فأهميته ليست محل شك . .

وقد رجعنا فى الانجليزية إلى مؤلفات ملنر وكرومر ولورد لويد وهى أشبه بالوثائق التى تمثل وجهة نظر الجانب البريطانى فى السبعين سنة الأخيرة من تاريخ مصر .

وكتب هندى كبير ـ هو السردار إقبال على شاه ـ كتابا عن الملك فؤاد . إلا أنه رغم إحاطته بكثير من المسائل ليس دقيقا الدقة الكافية التى يمكن أن نعده معها مصدرا تاريخيا .



وفى العربية رجعنا إلى حوليات شفيق باشا ومذكراته فى نصف قرن . وإلى كتاب الأستاذ العقاد عن سعد زغلول . وإلى تاريخ مصر القومى الذى وضعه الرافعى بك . وإلى كتاب الأستاذ كريم بك ثابت عن الملك فؤاد الذى صدر أخيراً ، وتضمن – فى عرض حسن كثير التوفيق – الجانب الاصلاحى من سيرة الملك الراحل . وكذلك كتاب المسألة المصرية لرتشتين ، وترجمة الأستاذين العبادى وبدران . وكتاب اسماعيل المفترى عليه للقاضى كرابيتس . وترجمة الأستاذ فؤاد صروف .

ومع هذه المؤلفات الهامة رجعنا كذلك إلى مخطوطات كثيرة لم يحن الوقت لذكرها . والتى تعد مرجعا رئيسيا فى الكشف عن كثير من أسرار السياسة فى الفترة التى نؤرخها .

ويضاف إلى كل ماتقدم مجموعات الأهرام وبعض المجلات الاسبوعية ، ومجموعة التيمس الانجليزية .

وإنى أقدم الشكر الجزيل لأصدقائى الكبار الذين يسروا لى مهمة كتابة هذه الفصول الموجزة عن سيرة ملك عظيم حكم مصر فى عهد دقيق خطير . . وأرجو أن يكون هـذا الكتاب فاتحة لتاريخ أوفى وأشمل نضمنه كل ماعلمنا وما قرأنا عن عصر فؤاد الأول أجزل الله له المثوبة بقدر ماوفى الأمانة لشعبه وبلاده .

صبيح

الشمس الغـــــاربة

١

فى القصر الحزين . . .

رست الباخرة براكبها العظيم فى ميناء نابلى ، وكان قصر « لا فافوريتا » قد أعد لاستقباله ، مع اسرته وحاشيته ، ومتاعه الكثير . .

وانتقل الجمع إلى القصر ، وحمدوا الله على أن يسر لهم الرحلة ، ويسر لهم هذا المقام الموطأ ، الذى مهدت فيه أسباب الراحة تحت إشراف صاحب العرش الايطالى ، مجاملة منه للضيف الكبير .

كان القصر فخما ، وكان الجو صحوا ، وكان الفصل صيفا ، وقد اكتست الطبيعة الايطالية كلها أبهى زينتها ، ولكن هل كان صفاء الهواء وإشراق الشموس ، ينسى الضيف أمسه القريب فى بلاد أحبها وأخلص لها الحب ، وعاش فيها زهرة أيام الحياة ، ونضر زمانه بأنواع من الرواء والجلال لم يسمع عنها إلا فى الأساطير .

هل كان قصر « لا فافوريتـا » ينسى اسماعيل قصر عابدين وقصر القبة وقصر الاسماعيلية وقصر الجيزة و بقية القصور ؟ . .

لا . . هل كان ماء التيبر الضحل ، ينسى اسماعيل نهر النيل العظيم؟

لا . : هل كانت شمس ايطاليا ، وجبالها وسهولها ، تنسى اسماعيل هذه الطبيعة السهلة السمحة التي كافح اسماعيل ليخرجها من بطن التاريخ إلى هامته ورأسه ؟.

لا . . ما كان لاسماعيل أن ينسـيه كل هذا في يومه الأمس القريب . وما هو بقادر على النسيان إن اراده .

ووضع رأسه بين يديه وراح يفكر . . ثم مضت الأيام ، وهو مسلم نفسـه للتأمل وللتفكير ، ولطائفة من الأحزان ، لايخفف من لوعتها حادث ولا إنسان .

راح يسأل نفسـه ، ويسأل نسمة الهواء التي تطوف حوله ، وشعاع الشمس الذي يمر عليه ، عن مصر وحالها .

راح يسأل : هل لا تزال ترعة الابراهيمية تذكره ، وتذكر أنه شقها لتكون مفخرة الدنيا ، لأنها أطول ترعة في العالم كله ؟

وهل لا يزال يذكره قنال السويس الذي ربط به شقي العالم ، وعانق عنـده ماء الابيض ماء الاحمر ، وجرت البواخر تحمل

ثروات العالم مشرقة مغربة ، تحتضنها فى الذهاب وفى الاياب أرض النيل ؟ . .

وهل لا تزال تذكره مئات المدارس التى نثرها فى أنحاء مصر لكى تخرج أهل البلاد من ظلام طال عليها أمده ، إلى نور يحمل معه أمله ؟ . .

وهل لا تزال تذكره خطوط السكك الحديدية ، بمئات الأميال. وخطوط التليفون والتلغراف التى قربت النائى وأدنت البعيد من انحاء النيل ؟ .

وهل لا تزال تذكره القناطر الخيرية التى تركها جده معطلة فأصلحها هو وأجرى الماء من عيونها بحساب ومقدار ؟ .

وهل لا تزال تذكره الاوبراء وحديقة الحيوان وجمعية الجغرافيا؟

وهل لا تزال تذكره مصانع السكر والورق والمنسوجات التى بثها على شاطىء النيل ؟ .

وهل لا تزال تذكرة القاهرة التى جملها وكملها لكى تستقبل ملوك الأرض والملكات ، فيفتنهم مرآها ؟ .

وأخيراً هل لا تزال الامبراطورة اوجينى تذكر أنها عند ماوصلت إلى بور سعيد كادت تفقد لبها من روعة ما رأت ، فأبرقت إلى

زوجها الامبراطور نابليون الثالث تقول : « الاستقبال فخم : لم أر فى حياتى مايماثل ذلك » ؟ ! .

أجل . ووقف اسماعيل بالذكريات برهة طويلة عند هذه الامبراطورة ، وأيامها فى مصر . . وكيف رجا من قدومها وقدوم زمرة الملوك والامراء الذين أغرقهم فى كرمه إلى الاذقان ،أن ينفذ مشروعه الكبير ، ويحقق حلما طالما هفت اليه نفسه ، وهو أن يعلن على الملأ العظيم أن امبراطورية افريقية قد تكونت ، وأن امبراطورها ، اسماعيل ، أصبح يدين بتاجه وحكمه لجهة واحدة — ليست تركيا ، وليست أحداً من سلالة عثمان — لجهة واحدة هى مصر وشعب مصر .

أجل الاستقلال التام الذى كان أمنية اسماعيل المشتهاة ، هو الغاية التى من أجلها عقد المؤتمر العظيم فى افتتاح القنال . . وقد اعد خطبة، ورأى من واجب اللياقة أن يسر إلى امبراطورة الفرنسيين بعزمه الذى انتواه ، إذا كان الغد واجتمع فى الحفل المجتمعون . وهنا اصفر وجه الامبراطورة ، وراحت تفكر فى هذا الأمر الكبير الخطير ، ورأت أنها ستكون فى مأزق حرج شديد الحرج إن اعلنت رضاها ، أو سكتت سكوت المذعن لهذا الاعلان الذى انتواه اسماعيل . فقد يؤدى الأمر إلى حدوث أزمات دولية بين

فرنسا وتركيا . وربما بين فرنسا ومصر . . وربما . . وربما وهكذا أخذت الهواجس تخيفها . وهكذا رأت أن يعدل اسماعيل عن بيانه، حتى يأخذ موافقة فرنسا . . أو تعتذر عن حضور احتفالاته .

ولم يفلح النقاش فى اقناع الامبراطورة . ولم يشأ اسماعيل أن يغضبها وهى ضيفة على أمير من أكبر امراء الشرق .

وهكذا فوتت اوجينى على اسماعيل عمله الكبير وبددت حلمه الذى عاش له وعاش عليه بضع سنين .

أخذ اسماعيل فى مجلسه بقصر لافافوريتا يحاول استعادة هذا الحادث ، ويسأل نفسه ويعيد السؤال : ترى لو أنه لم يكترث لمعارضة الامبراطورة ، وأعلن استقلاله ، وفرض حقه وحق بلاده على العالمين . فماذا كان يكون المصير ؟ .

هل كانت اوربا تعاديه أكثر مما عادته بعد مهرجانه بسنين ؟ هل كان ينتظر مصيراً أسوأ من المصير الذى هو فيه ؟ .

لا . فقد كانت أسباب النجاح تفوق أسباب الاخفاق عشرات المرات . .

وإلا فلماذا ضحى تضحياته الكبرى بفتح السودان ومهاجمة الحبشة ، والوصول إلى خط الاستواء ، واقناع الملك ماتيسا صاحب اوغندا برفع العلم المصرى على بلاده واعتناق الاسلام ؟ .

وإلا فلماذا ضم إلى مصر كل أرض جرى فيها ماء النيل من منبعه إلى مصبه ؟ .

وإلا فلماذا حقق أمنية المثاليين فى اوربا فألغى النخاسة ، وحارب الرقيق ، وجامل الاوربيين من انجليز وامريكيين وايطاليين والمانيين وجعل منهم عدته وأعوانه فى نشر معالم الحضارة فى البقعة الظلماء من القارة الافريقية ؟ .

لقد فعل الكثير من أجل إنشاء امبراطوريته الافريقية . . فلماذا تردد . . لماذا اصغى إلى احتجاج هذه الضيفة الفرنسية ؟ :

وضرب اسماعيل رأسه بيده، ثم مشى براحته على لحيته واعتدل بعد اطراق ، وسبح بنظره فى الفضاء القريب .

وهنا قطع السكون خطو خفيف ، وهمس رقيق ، وذراع حلوة صغيرة امتدت إلى عنقه وطوقته . . وسأله ابنه الصغير الحبيب فؤاد :

— فيم تفكر يا أبى . . وعلام كان اطراقك ، وتنهدك . . هلا قمت نسير قليلا فى الحديقة ؟ !

فهز اسماعيل رأسه وقال :

— لم يجىء وقت الحديث معك يابنى عما يشجينى . . ولكنى أرمق يوما يشتد فيه ساعدك ، وينمو عودك، ويكمل إدراكك

لكى ابثك ذات نفسى ، واودع صدرك همى ونجواى .

ثم انحنى على ابنه الحبيب الصغير وقبله قبلة العطف والحنان .

ولم يكف فؤاد عن الحديث ، بل تابع سؤاله بقوله :

— هل سأعود معك يا أبى إلى مصر بعد إنتهاء هذا الصيف؟

وهنا لم يطق اسماعيل على فتاه صبراً ، فقام من مجلسه ،وقال له :

— الافضل يابنى أن نذهب إلى الحديقة كما طلبت .

وقد سرّت حماسة الصبى ، وحيوته المتدفقة ، الكثير من هم اسماعيل . بل لقد بعثت فى نفسه وميضا من الأمل ، ولكنه لم يدر كيف سيحقق القدر هذا الأمل .

فعندما أجبرته عجلة الأيام التى تدور على أن يترك مصر ،و يترك الحكم ، خلف وراءه على عرش البلاد أكبر ابنائه « الخديوى » توفيق . ولولا ساعات من نهار أضافها الحظ الحسن إلى توفيق ، لما ولى الأمر بعد أبيه ، ولتولاه الأمير حسين ، لأنه ولد بعد أخيه بفترة قليلة من الزمن ، لا تسمى يوما ولا نصف يوم ، ولكنها أقل بقليل . وقد كان حسين [السلطان حسين كامل فيما بعد] يعتقد أن أباه سيخلع عليه تاجه ، فهو أحب إلى قلب أبيه من توفيق ، وهذه الساعات لاتكفى لأن تنزع الأمر منه إلى أخيه . ولكن اسماعيل عمل بحكمة على أن يهدىء من ثائرة حسين ،

ويسكن مابه من غيظ كظيم . بل استعان بكل مهابته ، وقوة تأثيره حتى اركب حسينا إلى جانب توفيق ، وكان أول المهنئين له بولاية أمر المصريين .

ولقد جد اسماعيل حتى جعل الأمر من بعده وراثيا فى أكبر ابنائه . ولتوفيق ابن — هو عباس — وإذا تخطى الأمر عباس ، لأمر أو لآخر ، فيوجد من اخوة توفيق حسين، وحسن، وابراهيم حلمى ، ومحمود حمدى . . ثم . . ثم فؤاد .

وجد اسماعيل مابين فؤاد ، وما بين العرش شوطا بعيدا ، يكاد يكون من أشق الأمور أن يرتجى له الفوز فيه .

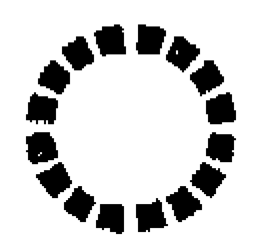
ومع هذا فقد قرر أن يرعى تنشئة هذا الشبل الذى بقى له فى منفاه ذخراً وقرة عين ، وأن يودعه كل سره ، وخفايا أمره . . وهى بذور قد تصيب أرضا خصبة ، وقد تخيب ، فعلم أمرها عند علام الغيوب .

وكان اسماعيل يعلم أن الدنيا كلها تحالفت على أن تشوه سيرته، وأن تبرر عزله عن عرشه ، وأن تهيل عليه من الكذب والافتراء أوزانا واحمالا . . ومن يدرى ، فقد ينهض هذا الابن الذى يقفز بجواره قفزات الفرح والسرور ، بعد حين من الزمن طويل أو

قصير ، ليدفع عن اسم ابيه ماليس بحق ، وأن يظهر صفحته على حقيقتها للعالمين .

وتأسى اسماعيل بنابليون ، الذى لم ينفق وقته فى سانت هيلانه عبثا، ولكنه أخذ يكتب، ويكتب مبرراً أعماله، ومدافعا عن سيرته، حتى يضمن الملك من بعده لبيته وذويه .

ولم يكن اسماعيل كاتبا ، ولا هو من أهل البصر بفنون التاريخ والقلم . و إذن فليكن كتابه المسطور صدر ابنه الصغير ، الأمير احمد فؤاد .



٢

الصبا والشباب

كان الأمير الصغير فى هذا الوقت الذى نقص فيه قصته ، لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره .

وكان أبوه قبل عام — أى وفؤاد فى العاشرة — قد أرسله إلى معهد كبير فى جنيف بسويسرا اسمه معهد « توديكوم » Tudicum ليبدأ حياته الدراسية المنظمة . وقد حقق اسماعيل بإيفاد ابنه إلى بلاد بعيدة فى سبيل العلم وهو صغير السن ، صورة قديمة لسادة العرب من أمراء وخلفاء وغيرهم ، الذين كانوا يرسلون صغارهم ، وإهابهم ما يزال غضا ، لكى يتلقنوا لسان العرب ، وشعرهم ، و بقية علمهم فى بيئته الأولى . وكانت اوربا — بالنسبة لاسماعيل — هى بيئة العلم ومثابة الذين يريدون تربية صحيحة . . وقد احتمل فراق صبيه الصغير فى سبيل تنشئته ، وتثقيف عقله كأحسن ما تكون التنشئة والتثقيف .

ولكن ما لبث القدر أن حرم اسماعيل من مصر، وعرشه فيها، ورده إلى هذا المنفى فى ايطاليا. فأستدعى إليه ابنه وكان قد أكمل فى معهده السويسرى عاما وشهرين، لكى يلحقه بالمعهد الدولى فى تورين.

وقد أتاحت له الدراسة فى ايطاليا إجادة اللسان الايطالى كأنه أحد أبناء هذه البلاد. ولما بلغ السابعة عشرة من عمره، أى فى عام ١٨٨٥، ألحقه أبوه بالاكاديمية العسكرية فى تورين. ثم تعلم المدفعية العملية ثم الهندسة العسكرية.

وما لبث بعد إتمام دراسته العسكرية أن عين ضابطا فى الجيش الايطالى، بالفرقة ١٣ بحامية روما.

فلما بلغ الثانية والعشرين من عمره ندبه السلطان عبد الحميد لكى يشغل وظيفة ملحق بالسفارة التركية فى فينا. وظل مقيما بعاصمة آل هبسبرج عامين من سنة ١٨٩٠ إلى سنة ١٨٩٢.

وفى هذه الفترة كانت أمور مصر قد تبدلت تبدلا عجيبا عن الوقت الذى تركها فيه أبوه. فقد حدثت فى أيام توفيق الثورة العرابية، التى تدخل الأنجليز لقمعها تدخلا عسكريا، احتلوا على أثره البلاد احتلالا مؤقتا حسب تصريح ساستهم. ثم مات توفيق بعد أن حكم البلاد على طريقته. وتولى من بعده ابنه عباس

الثانى فى مارس سنة ١٨٩٢ . وكان عباس شابا صغير السن لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، ممتلئا بالحياة والنشاط . وكان من أول ما فكر فيه ، أن يستدعى عمه الأمير فؤادا من خدمة السلطان عبد الحميد ، لكى يعمل معه فى مصر .

لبى الأمير الدعوة ، وقدم إلى مصر فوراً ، وكانت سنه اربعة وعشرين عاما ، أى أنه كان أكبر من خديويه بستة أعوام ، وقبل المنصب الذى عرضه عليه ، وهو كبير ياورانه .

وظل الأمير فى بلاط عباس ثلاثة أعوام ، لم يكن خلالها سعيداً بمنصبه ، ولا بجواره للخديوى ، لاختلاف ثقافتهما ، ونظرتهما إلى الحياة .

وفى سنة ١٨٩٥ توفى أبوه . وكانت وفاته على ضفاف البسفور بعيداً عن مصر ، صدمة لاشك فيها للأمير . ولما حمل جثمان اسماعيل إلى مصر ، لم يقابل بالتكريم اللائق بأعظم خديوى تولى عرش هذه البلاد . . وقد فضل الأمير فؤاد أن يعتزل العمل الرسمى ، وحسبه ثلاث سنوات من الضيق ، فاستقال ، وكان فى السابعة والعشرين من عمره .

● ● ●

انفق الامير فى اوربا سبعة عشر عاما ، تعلم فيها — وهو فى

فجر الحياة — من المعاهد، ومن المشاهد اليومية، ومن معيشته في البلاط الايطالى، ثم في البلاط النمسوى، ومن طوافه بأكبر عواصم الغرب، مافتح بصره و بصيرته على الوان من المعرفة أبهجته وازعجته . . ابهجته لأنها أرضت عقله، وحببت إليه الحياة في ظل الرقى العظيم الذى اندفعت فيه اوربا أواخر القرن التاسع عشر. وازعجته لأنه يقارن هذه الحياة المنطلقة، القوية في انطلاقها، التى تحياها شعوب الغرب، والحياة المتخلفة البائسة التى يحياها معظم شعبه من المصريين.

حقيقة لقد جاهد أبوه جهاد الجبابرة، لكي يسلك مصر في سلك الدول الاوربية المتحضرة، ولكنه لم يصل من هذا إلى كل ما يريد . .

ولكن ما هى العوامل التى أدت بالنهضة الاسماعيلية الى النكسة التى صارت اليها في آخر أيامه و بعد حكمه بسنين ؟

لقد تأمل اسماعيل تأمل الحاذق البصير في سيرة أبيه ابراهيم وجده محمد على الكبير وأحاط علما بالعقبات التى وقفت في طريق نهضة هذا الجد المصلح الذى علت همته حتى صافحت وجه السماء . .

وجد أن جده أراد ان يظفر باستقلال مصر من تركيا وكان

سبيله إلى هذا الحرب التى لاتهدأ ، ولا تلين . شن الغارة بعد الغارة على املاك الدولة العلية فى تركيا حتى أطلت جيوشه برأسها من دروب طوروس على هضبة الأناضول . . ولكن هذا الفتح الكبير ما لبث أن انحسر ، وتضاءل حتى وقف عند حدود مصر لشدة ضغط الدول الأوروبية ، وبذا حرمت بلاد النيل من ثمرة فتوحها ومن دمائها التى اريقت وأموالها التى بذلت على هذه الحروب . . .

فليتفاد اسماعيل اذن حرب تركيا بالسلاح ، ولينفق المال الذى يحتاج إليه القتال ، فى حرب بيضاء ، لاتراق فيها الدماء ، ولكن تشترى فيها الذمم والأهواء . .

أجل . انه كان فى حاجة إلى فرمانات « علية » تقربه من الاستقلال وتبعده عن التبعية . ولا بأس من أن ينفذ إلى غرضه من المناطق الضعيفة فى السياسة التركية . . لا بأس من أن يشترى رجالها المسئولين فردا ، فردا ، بالمال . . حتى السلطان ، اغرقه بالهدايا ، وكانت من أعجب الأنواع — كانت طيورا يهواها السلطان ، ويعلن عن إستعداده لعمل كل شيء فى سبيل الحصول عليها — فنفذ اسماعيل إليه من هذا الباب .

ولقد وصل الأمر باسماعيل إلى حد أنه كان يتدخل فى تأليف

الوزارات العثمانيـة ، ويقصى عنها من يلمح فيـه العداوة ، أو لايستجيب لإغراء المال . . .

هذه هى حرب الإستقلال ـــ الحرب البيضاء ـــ التى شنها اسماعيل على الدولة العلية .. وكانت تكون من نفقاته قسما كبيرا. وقد نجح فيها نجاحا تاما . وكاد يصل ـــ كما ذكرنا وكما شهد كبار من الأحياء اتيحت لهم معرفة أسرار ذلك الزمان ـــ كاد يصل إلى اعلان امبراطوريته الأفريقية فى حفلات القنال .

ونظر من زاوية أخرى إلى حروب جده محمد على الكبير . فوجد أن من الخير ان يوجه عجلة الفتح ـــ لا إلى الشرق العربى الأسيوى ـــ ولكن إلى الجنوب الأفريقى ، حيث يمتد نيل مصر وحيث تقع ارض مصر ، وحيث لم تكن المطامع الاستعمارية قد تنبهت إلى هذه المجاهل . .

واصاب اسماعيل فى تقديره لأهمية هذه المناطق لمصر . واخطأ فى ظنه أن الاستعمار الاوربى لم يلق باله إليها . فما أن وصل اسماعيل إلى الغاية من فتحه وكشفه للمناطق الإستوائيه حتى تحركت اوربا.. تحركت كأنما ضغط ضاغط على زر كهربائى اقامها كلها قومة رجل واحد . . فجميع العواصم أخذت تتحدث ـــ حتى بسمارك فى المانيا ـــ راح يزمجر ويكيد للامبراطورية الإسماعيلية .

وكانت الحجة التي تذرعت بها الدول للتدخل هي الديون وارتباكات اسماعيل المالية — ولكنه لم يكن يعلم أن الأمر لم يكن أمر المال وحده — ولو أن حجاب الغيب رفع في وقته لعلم أن عصره راح فداء امبراطوريته الافريقية التي كاد يحققها ، ويصل من تحقيقها إلى كل مايريد .

ونحن لا نؤرخ عصر اسماعيل ، ولكننا نشرح العوامل الخفية التي لابست سياسة عصره ، والتي اتيح للأمير الشاب أن يقف عليها ، وأن ينصب نفسه لاذاعتها عندما يحين الأوان — ولو استطاع — وواتاه الحظ لعمل على أن يتابع بنفسه سياسة أبيه ، متنكبا طريق العثرات الذي اودى باصلاحه ، وبعرشه ، وبالآمال الكبار التي كانت تجيش في صدره .

وكان أهم مايحز في نفس اسماعيل وهو على عرش مصر ، أن الوقت لا يتسع لتحقيق كل آماله في حياته ، فسار على عجل ، ولابست سياسته — نتيجة هذه السرعة — أخطاء لا شك فيها . وكان يعلم أن ابنه ليس من الكفاءة والقدرة بحيث يسير على هداه ، ويتابع من بعده خطاه . . فأحب أن يحقق كل شيء ، ولم يعرف معنى الصبر ، ولا التريث فكان في أيامه ما كان .

ولعله ، وهو في مقامه الطويل المسئم بقصر «لافافوريتا» قد

حدث ابنه الأمير الشاب بكل هذه الخواطر، وكل هذه الهواجس .

ولعله لم يكن من وحى المصـــادفة ، أن الأمير عند ما أصبح رب العرش والتاج ، كتب كلمة « الصبر » بخط جميل على لوحة وضعها على مكتبه حتى يراها معظم ساعات يومه ، وحتى تذكره بما حدث، وبما يجب أن يسير هو عليه .

وهكذا أملت سيرة الأب على ابنه الدرس الأول والأهم وهو :

« يا بنى كن صبوراً ؟ »

وهكذا سنجد لهذا الدرس تأثيره الكبير عندما ألقى القدر اليه، بتوفيقاته الغريبة التى يخطئها كل حساب ، مقاليد الأمر فى مصر.

● ● ●

ودرس ثان أملته حوادث الزمان على الأمير الشاب .

فقد وجد أن جده الأكبر كان شديد العناية بأمر التعليم، لأنه هو لم يكن متعلما . ولو أنه كان ذا بصر بشئون الدنيا ، عن طريق القراءة والاختبـار الشخصى ، لعلم من أسرار السياسـة الدولية أكثر ، بكثير مما كانت تحمله إليه أذناه من تقارير رجاله والمبعوثين السياسيين فى بلاطه .

حقيقة كان محمد على آية زمانه فى الذكاء والأقتدار على إدراك

ما فى صدور الرجال .. ولكن العالم فى وقته كانت أموره قد تعقدت ووصلت مكائد دهاة الدول والساسة إلى الذروة . . كان عصر تاليران وميترنج ووليم بت . كان عصر الكفاح الرهيب بين القوى العسكرية ، التى مثلها نابليون . والقوى السياسية التى مثلها رجال انجلترا . . كان عصرا شاذا فى كل شىء . وكان الغوص على اسراره يحتاج إلى علم واسع غزير . . وكانت مصر فى عهد محمد على تنهض من تحت التراب وتنفض عنها آثار القرون السالفة. ولما بعث محمد على ببعثاته إلى اوربا ، حملت ثقافة الغرب معها، ولكن الزمن كان قصيرا . ولم يسمح بأن تنشأ فى مصر طبقة من أصحاب الخبرة العالية بشؤون السياسة الدولية . وهذه الطبقة لاتنشأ بعد جيل أوجيلين ، ولكنها ميراث تحصل عليه الأمم بعد كدح وكفاح طويلين . .

فلما تولى اسماعيل كان أميرا عالما بصيرا ، ذا اقتدار فى معرفة سياسة الدول. ولكن مصر كانت ملتقى سياسة العالم فى ذلك الوقت وقد ظل هذا الحاكم القوى يسبح فى تيارات هذه السياسة العنيفة القاسية سبعة عشر عاما كاملة ، حتى أصابه الإعياء ، وغلب على أمره فى آخر الشوط . . .

ولقد ادرك الأمير الشاب هذا كله . وعلمه من أبيه ، وقرأه في سيرته الصحيحة كأنما يقرأ في كتاب مسطور .

وقدر انه لكي يكون نافعا لأمته ، ولبيته المالك لابد من أن يكون عالما . . وعالما بالمعنى الكامل الفسيح المدى الذي يمكن أن تحمله هذه الكلمة . ومن حسن حظه انه عاش سبعة عشر عاما في اوربا ، بلاد العلم والحضارة الرفيعة . .

فلما ترك العمل في بلاط عباس ، اراد أن ينفذ فورا وبغير إبطاء ، الوصية الثانية التي املتها عليه سيرة جده وأبيه ، وسير الحوادث التي مرت به . . وهذا الدرس هو :

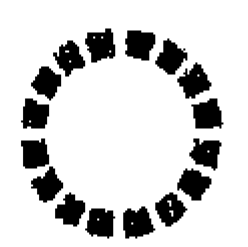
« يا بني . . كن عالما » .

يقول السردار اقبال على شاه في كتابه عن الملك فؤاد :

« ظل الأمير فؤاد ثلاث سنوات حتى ١٨٩٠ يجاهد لكي يحتفظ بموقفه الرسمي ياوراً ، وناصحاً للخديوى . ولكنه لم يستطع الاستمرار ، فاستقال من كل المناصب ، وأصبح فرداً عادياً . وكانَ هذا التصرف راجعاً إلى ثقافته وسعة عقليته التي هذبت من نظرته إلى الحياة . فقد حاز ثقة الباب العالى ، ونجح في مركزه في العالم الاوربي . ثم جاء إلى مصر ليقدم نصائحه إلى ابن اخيه . ولكن ابن اخيه لم يكن يعمل بهذه النصائح فاستقال بعد مناقشة

حادة بينهما قال الأمير فيها للخديوى الشاب : « انه لا يستطيع أن يترك نفسه فى مهب الريح العاصفة بالعرش ، و يفضل أن يبذل جهوده فى سبيل من يقدرها » .

ظل الأمير فؤاد يعلم نفسه ، ورأى أنه لا يكفى أن يحس هو بأنه يرضى عقله وضميره بما يستوعب صدره من علم، بل لابدمن أن يساهم فى فتح باب التعليم الصحيح لمواطنيه . . لا بد من أن يعمل على تربية الطبقة « العالمة » فى مصر من بنيها . فبدأ جهاده فى هذا الباب ، وانفق عليه معظم جهوده طوال الفترة التى ظل فيها أميرا . . وسنتناولها بالبحث والتفصيل بعد حين .



— ٣ —

فى انتظار الحوادث

ترى هل ستتحقق نبوءة قديمة قيلت للأمير فؤاد ، وهى أنه سيموت ملكا ؟ . . هل ستتلاحق الأحداث ، ويدور الزمن دورته لكى يحقق أمنية أبيه ، فيجلس على عرش مصر ؟ .

لم ينظر الأمير بقلق إلى المستقبل ، وقرر — منذ الدقيقة التى انسحب فيها من بلاط عباس الثانى — أن يهجر السياسة هجراً تاماً ، وأن ينذر نفسه للأعمال الاجتماعية الاصلاحية .

إلا أن السياسة لاحقته مرتين : مرة فى سنة ١٩١١ . والثانية فى سنة ١٩١٣ .

ففى سنة ١٩١١ ، دعاه الخديوى عباس إلى مرافقته فى رحلته إلى إيطاليا ، لما يعلمه من محبة البيت المالك الايطالى للأمير ، ولألمام الأمير باللغة الايطالية كأنه أحد أبنائها ، فاستجاب فؤاد لهذه الدعوة ، ورافق ابن اخيه فى رحلته ، ويسرها له تيسيراً مدهشا ،

ورحب به بيت سفواى الايطالى ترحيباً حاراً. مما دل على أن الأمير فؤاد يتمتع بشهرة عالية فى بلاط الملوك الاوربيين .

أما فى سنة ١٩١٣ ، فقد حدث حادث أهم ، كاد يقترب بنبوءة المنجم من التحقيق . فقد تعقدت أمور البلقان السياسية تعقيداً شديداً بعد حروبها الاستقلالية الدامية . ورأى كبار ساسة العالم أن إيجاد عرش فى البانيا المسلمة قد يؤدى إلى إبعاد شعلة الخطر التى تتراقص فوق مستودع البارود البلقانى . واستقر الرأى على إيجاد هذا العرش — وهو العرش الاسلامى الأول والوحيد الذى ينشأ فى اوربا بعد أن ترك المسلمون الاندلس — فردوسهم المفقود — ووضعت قائمة المرشحين من أمراء المسلمين ، فكان الأمير فؤاد أول هذه القائمة . ودارت المخابرات معه . ولكنه رأى خيراً لنفسه ولبيته ، أن يتابع جهوده السلمية التى كرس وقته لها فى أرض الوطن و بين عشيرته وأمته .

لم يتربع الأمير على العرش الألبانى . ولو أنه قبل إذن لفقدت مصر ملكا من أقدر الملوك الذين شهدهم تاريخها الطويل .

هذان هما الحادثان السياسيان اللذان طافا حول الأمير ، ولم يكن له بعدهما دور يذكر .

ولا صحة لما ذكره السردار اقبال على شاه ، من أن الأمير

كان دائم التطلع إلى عرش مصر ، يتحين الفرصة للظفر به. فقد كان العرش أمنية تجول فى النفس ، ولكنها لم تحمل الأمير على أن يتحرك خطوة واحدة فى سبيل تحقيقها . . ولهذا لم يحدث مطلقا أن احصى التاريخ على الأمير أنه أخل بواجب الولاء للجالس على العرش ، سواء كان هذا الجالس اسماعيل ، أو توفيقا، أو عباسا ، أو حسينا . كان العرش عنده رمزاً للاخلاص للبلاد وللاسرة المالكة . واستوى عند الأمير هذا الخديوى أو ذاك ، فكل منهم كان يؤدى واجبه جهد طاقته ، والاخلاص الصحيح كان يقتضى من كل فرد ، فضلا عن أمير راجح العقل كفؤاد، أن يؤازر ملك البلاد وألا يضع فى طريقه أى عقبة من العقبات .

وتابع السردار اقبال خطأه ، عندما قال وهو يتحدث عن هذا الموضوع أن الأمير فؤادا أصيب بخيبة أمل كبيرة عندما تخطته الحوادث ، وأجلست أخاه الصغير حسينا على العرش . فما كان فؤاد أكبر من حسين . وعندما وافت المنية السلطان ، كان فى الثامنة والستين من عمره ، وكان خلفه فى الخمسين من عمره فقط .

ومن حسن حظ مصر — ومن حسن حظ الاسرة العلوية — أن امراءها لم يختلفوا مرة واحدة على العرش خلافا يؤدى إلى

كوارث من النوع الذى عرفته الأسر المالكة على مر التاريخ .
والذى كان يؤدى إلى انقسام الشعوب ، وإلى حدوث أزمات
خطيرة فى حياتها . فقد كان الجميع يقتلون فى أنفسهم شهوة الحكم ،
مادام يجلس على العرش واحد منهم .

وفى الفترة التى كان مصير العرش فيها قلقا — وهى فترة الحرب
الماضية — لم يظهر فى صفوف الأسرة العلوية أى انقسام من أى
نوع . ولو أن شيئا من هذا حدث لأدى إلى كارثة محققة .

وإذن فقد كان الأمير فؤاد ، يحس بأنه يستطيع إذا ولى
الملك أن يخدم بلاده خدمة جليلة . ولكن مادام القدر لم يضع فى
عنقه هذه الامانة ، فليشغل وقته باعمال هامة ، تظهر فيها كفايته
وغيرته .

وكان الأمير يطمع فى أن يرى لبلاده من المكانة المرموقة بين
شعوب العالم ، مثلما رأى فى أثناء مقامه ، وأثناء سياحته فى اوربا .
وكان يوقن يقينا لايتزعزع بأن اديسون المصرى ، أو ماركونى
المصرى ، أو باستير المصرى ، يفيدون بلادهم أكثر بكثير مما
يفيدها الانتصار فى مئة معركة حزبية . . فمصر العالمة ، مصر
المساهمة فى سير الحضارة ، مصر البانية فى حاضر الدنيا ومستقبلها
هى مصر التى كان يرجوها الأمير ، ويخلص فى العمل لايجادها .

وهذا هو السر فى اهتمامه الشديد فى إنشاء الجمعيات العلمية المتخصصة . . وهذا هو السر فى الأخذ بيد الشباب المصرى نحو آفاق المعرفة العالية . . وهذا هو السر فى ترحيبه الشديد بعلماء الغرب وقادة الفكر فيهم . . وهذا هو ما عمل له أميراً ، وما عمل له ملكا .

ولنضرب أمثلة للجمعيات العلمية التى شغل الأمير نفسه بها قبل ولاية العرش ، غير جمعية الجامعة المصرية ، التى سنخصص لها بحثا خاصا . .

فى سنة ١٨٧٥ انشأ الخديوى اسماعيل الجمعية الجغرافية ، للمساعدة على نشر المعلومات وتشجيع الكشف عن المناطق المجهولة فى افريقيا ، وقد أدت هذه الجمعية خدمات جليلة فى سبيل تشجيع الرواد إلى قلب افريقية ، وفى سبيل جمع الوثائق والخرائط ، والنشر عنها فى كل مكان . وقد انضم لعضوية هذه الجمعية أعلام مشهورون من رجالات الغرب والشرق . وأدت للعلم خدمات جليلة الشأن .

ولكن ما أن انقضت أيام اسماعيل ، ودخلت مصر فى غمرة الاضطرابات العسكرية ، حتى بدأ الفتور يدب إلى الجمعية . وما أن أقبلت الحرب الماضية حتى وجدت هذه المؤسسة العلمية الهامة

جدثا من غير روح . فصدر أمر السلطان حسين باسناد رياسة الجمعية إلى اخيه الأمير احمد فؤاد . ومن ذلك الوقت أخذت تدب الحياة مرة أخرى فى هذا الجدث الهامد . ومالبث أن استعاد نشاطه ، وبدأ ينمو ويتقدم فى سلم الارتقاء ، ويتابع المهمة الجليلة التى انشىء من أجلها . وهذه المؤسسة اليوم مدينة بتجديد وجودها إلى المليك الراحل الذى تابع رعايته لها وهو على العرش، وانفق عليها من ماله الخاص مبالغ جسيمة ، وأمدها بمجموعات هامة جداً من الوثائق ، سافر رجاله إلى انحاء الأرض للظفر بها ، ودفع الأموال الطائلة للحصول عليها .

ورأى الأمير أن مصر فى وضعها الجغرافى تقع على بحرين من أكبر بحار العالم ، وأن شواطئها الطويلة تسمح لمصر بأن تكون مركزاً من أهم المراكز لاصطياد الاسماك والاسفنج وغيرها . ولتحقيق هذه الفكرة ، أخذ يفكر فى إنشاء معهد لهذه الاحياء المائية فى الاسكندرية أكبر الثغور المصرية ، ليرسم هذا المعهد من خلال مباحثه العلمية المركزة ، أحسن الطرق لاستغلال ثروة البحار ، وما هى الانواع التى يجب تكاثرها ، بدراسة حياتها ومزاياها . وقد سبقتنا إلى هذا العمل اوربا واميركا واليابان ونيوزيلندا ، ووصلت فى استغلال احيائها المائية إلى أن اصبحت

فى بعض المناطق عماد الثروة الأهلية . وفى سنة ١٩١٢ شرع الأمير فؤاد فى تنفيذ فكرته ، ولم يتأت له إخراجها إلى حيزالعمل إلا بعد توليه العرش عام ١٩١٨ .

وكان جلالته يذكر المصاعب الكثيرة التى عاناها فى فترة التحضير . و يضرب الامثلة بمحطات الغرب الشهيرة ، مثل محطة نابلى التى انفق عليها نصف مليون مارك . ولكنه يجد صدوداً وانصرافا من الجميع عن تحقيق هذه الفكرة . حتى أن أحد كبار المصريين نصح الأمير « بأن يعيش سعيداً ، بدلا من أن يسلى نفسه بخلق مثل هذه المتاعب ! »

وقد أشار اللورد اللنبي فى تقريره عام ١٩٢٠ إلى هذا المعهد بقوله« انه تم بفضل جهود «السلطان» وحده ، وقد افتتحه رسميا فى ٢٨ اكتوبر سنة ١٩١٩ . وتقدم العمل فيه تقدما مرضيا على الرغم من العقبات الكثيرة التى ظهرت فى طريقه . ومما لايحتاج إلى اثبات أن لهذا المعهد قيمة كبيرة . وقد اقترح ضم عدد كبير من الاخصائيين اليه لكى يرسموا الطريق الذى يسير فيه العمل ، وتحديد علاقة هذا المعهد بمصلحة مصايد الاسماك ، وغيرها من مصالح الدولة . »

و يظهر أن القيمة الكبيرة لهذا المعهد التى قدرها اللورد اللنبي

فى تقريره ، والتى عمل من أجلها الأمير ثم السلطان ثم الملك فؤاد ، لم تكن واضحة كل الوضوح للجنة المالية فى احـــدى الدورات البرلمانية المصرية . التى أوفدت لجنة من النواب لفحص حالة المعهد، فعادت تقول ان فى المعهد ٦٠ سمكة ، والعناية بهذا العدد الضئيل من السمك لا يبرر النفقات التى ترصد له ! ! وحذف الاعتماد المخصص لمعهد الأحياء المائية .

وقد أسف الملك كثيراً لتسرع هذه اللجنة، وفاتها أن مصر تكون سعيدة لو أنها انفقت على فحص «دودة» واحدة من دود القطن مليونا من الجنيهات عسى أن تتوصل إلى استئصالها . وهى بعد ، دودة واحدة ، لا ستون .

ورأى الملك أن يعهد إلى موظف كبير من بلدية الاسكندرية بالاشراف على مبانى المعهد حتى يظهر المستقبل أن فحص سمكة واحدة قد يفيد ثروة البلاد أضعاف ما أنفق على هذا الفحص .

وانشأ سموه وهو أمير جمعية الاقتصاد الســـياسى والاحصاء والتشريع، التى حظيت نشراتها الدورية وجهودها بتقدير جامعات الغرب ، وتعد بحق أهم مؤسسة علمية ثابتة الأســاس فى مصر . ومجلة مصر المعاصرة التى تصدر بالفرنسية تعد من أعظم المراجع فى

جامعات الغرب عن تقدم مصر وسير نهضتها . كما أنها المجلة الوحيدة التي تؤدي هذا الغرض .

وانشأ الأمير جمعية لجذب انظار السائحين إلى مصر، وامدادهم بالمعلومات المفيدة عن ماضي البلاد وحاضرها .

كما ساهم فى الميدان الاجتماعى بجهد عظيم . فقد رأس جمعية الإسعاف عام ١٩١٠ ، وما لبثت أن انتقلت من فكرة يسودها التعصب الاجنبي ، إلى فكرة إنسانية نبيلة فى غايتها ومراميها . وما لبثت أن بنت دارها ، ونمت مواردها ، وامدتها الحكومة والاوقاف وزادت التبرعات لها ، وأهم من هذا كله ، أنها أوجدت نظام التطوع بين الشبيبة لخدمة الجرحى والمرضى ، فاقبل الشباب على هذا العمل فى جد ملحوظ ، ونما الشعور الاجتماعى العالى بينهم . وأحس الفقير للمرة الأولى أن يدا من الرحمة والحنان قد بدأت تمسح آلامه. ومازال الأمير يتابع رعايته لهذه المؤسسة، وتضاعفت هذه الرعاية وهو ملك ، حتى انتشرت فكرتها فى انحاء مصر ، وحتى أصبحت من المؤسسات التى لا يستغنى عن خدمتها المصريون إلا أن يستغنوا عن الماء والهواء ، ويستوى فى هذا العواصم المكتظة مثل القاهرة ، بما فيها من حوادث المرور وغيره ؛ والمدن الصغيرة بما فيها من عدوان الأمراض والحشرات المؤذية على الأبدان .

وهذه الروح التى أملت على الأمير أن ينهض بجمعية الاسعاف هى التى أملت عليه أن يبعث بنشاطه جمعية الهلال الأحمر . فقد وجدت هذه الجمعية عام ١٩١٢ لمساعدة منكوبى الحرب الطرابلسية ولما شبت نيران الحرب العظمى ، مست الحاجة إلى تجديد هذه الجمعية لمتابعة مهمتها . فنى سنة ١٩١٦ تخاطب الجنرال مكسويل القائد العام الانجليزى مع الأمير للاشراف على هذا العمل ، فقبله.

وما هو إلا أيسر الوقت حتى أنشأت الجمعية مستشفاها الذى ضم ٣٠٠ سرير ، مع أحدث أدوات الجراحة والتمريض ، وحتى كانت قطارات الاسعاف تنقل الجرحى من الاسكندرية وبور سعيد والقنطرة ، ومعظمهم مسلمون ، إلى القاهرة حيث تمدهم الجمعية بالملابس والعلاج اللازم .

يقول السردار اقبال على شاه .

« كان الأمير فؤاد قد بلغ الثامنة والأربعين عندما دعى إلى هذا العمل . فكان رجلا متين التركيب قوى البنيان ذا شارب مفتول، متزن ثابت الخطى . ولعل مرجع ذلك إلى شعوره بقيمة العمل النافع الذى استطاع أن يؤديه لأمته . على أن أهم وأعظم ما قام به الأمير هو تأسيسه مستشفى فى القاهرة مجهز بأحدث الأجهزة . وكانت أسرته مشغولة دائما بمرضى المسلمين الذين كانوا

ينقلون من الدردنيل وسوريا وفلسطين . وكان يقوم بالعمل الطبي فيه أطباء مصريون وممرضات اوربيات بطريقة جعلته في مستوى أرقى المستشفيات الأوربية . وكان الأمير دائم السفر ، في قطارات المرضى ليضمن بنفسه حسن الاشراف عليهم طيلة الطريق . وكثيرا ما كان يساعد في نقلهم وفي مواساتهم من غير أن يعرف أحد شخصيته . وبلغ من كرمه أنه كان يعطى الناقهين منهم حين يتركون المستشفى نقودا يستعينون بها حتى يتمكنوا من الحصول على عمل [وهى نفس فكرة يوم المستشفيات التى يرعاها جلالة الملك فاروق هذه الأيام] .

« وظل الأمير شهورا يعمل الساعات الطوال كل يوم . وكثيرا ما كانت جمعية الهلال الأحمر ، وهى مستقلة عن المستشفى — مع خضوعها لرئاسة الأمير — ترسل مساعدات مالية أو طبية إلى فلسطين . وتساهم في الاهتمام بالجرحى الأتراك » .

●●●

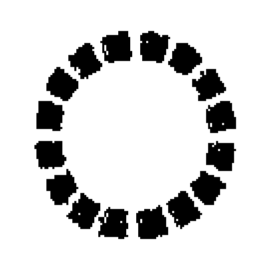
ويدخل في باب نشاط الأمير الاجتماعى تأسيسه معهد الصناعات النسائية في الاسكندرية الذى كان يضم الفتيات الفقيرات ويعلمهن أنواعا من الصناعات التى تحميهن من السقوط ، وتدبر لهن مورد رزق معقول . ويعلق السردار اقبال على هذا العمل بقوله :



السلطان حسين

« كان هذا المشروع جديدا على بلد كمصر ، لم يكن مستعدا لأن يستسيغ فكرة العمل النسائى من الناحية الاجتماعية ، كما تفهمه الأمم الغربية » .

وقدر لهذا المشروع أيضا النجاح . فبعد مضى عامين على اليوم الذى قام فيه المشروع على أكتاف عشرة من السيدات بلغ عدد العاملات ١٦٤ . ثم زاد العدد بعد هذا زيادة مضطردة . حتى بلغ ٢٩٤ فتاة فى عام ١٩١٧و١٩١٨ . وقد زادت مبيعات المعرض فى هذا العام على ٤ آلاف جنيه ، وهو نجاح جدير بالتسجيل لهذه الفكرة الوليدة النافعة .



— ٤ —

عرش مصر

لا يتسع المقام فى هذا الفصل لأن نقول على وجه التفصيل كيف وقع هذا ، أو لماذا وقع . . ولكن يكفى فى بعض المواطن أن نقول ماوقع ففيه الكفاية .

فى سنة ١٨٩٢ تولى عباس الثانى عرش مصر بعد أبيه توفيق . بموجب نظام توارث العرش الذى حصل اسماعيل على فرمان به من الباب العالى . . وكانت مصر فى عهده قد خرجت من الثورة العرابية ، متعبة ، مثخنة بالكثير من الجراح . . وكانت تحتاج إلى ربان قدير ماهر يدير دفتها فى هذا الظرف العاصف المليء بالنوء الذى يزمجر من كل مكان. ولكن عباسا لم يكن هذا الرجل . . كان وطنيا . . كان يريد أن يعمل شيئا . ولكن ليس يكفى أن يكون الانسان وطنيا ، أو متحمسا ، ولكن يجب أن يعرف كيف يسير بوطنيته إلى طريق النجاح . ولا يكفى أن تكون

لدى الانسان الرغبة فى الانطلاق السريع ، ولكن يجب أن يعرف أى السبل يسلك ، ومتى يسرع ومتى يبطىء .

ارتطمت بعباس سفينة الحكم التى كان على رأسها . . ارتطمت مرة ومرة ومرة . وكان حكمه الذى استمر ٢٣ سنة مليئاً بالقلق والمتاعب النفسية والمادية . وقد انتهى هذا الحكم إلى نتيجة ما كان يمكن تفاديها ، وهى إنتهاز فرصة الحرب ، لكى تعزله السلطات البريطانية عن العرش ، لأنه انضم رسميا إلى تركيا والمانيا ضد الانجليز ، وربط نفسه بمصيرهم . .

أما الاتراك فقد كانوا ضيقين به ، حتى رتبوا اغتياله ، ليظفر أحدهم بالعرش بدلا منه . . ولما فكروا فى فتح مصر ، أبوا عليه حتى مصاحبته للحملة المسافرة لفتح بلاده ! !

راهن عباس على الجواد الخاسر ، فخسر العرش ، واوقع نفسه فى حرج شديد . وكاد يعرض مصر لمتاعب أشد ، أكثر من كل ماعانته ، ومن كل ما كانت تعانيه .

أعلنت الحرب فى اغسطس سنة ١٩١٤ .

وكان حسين رشدى باشا قائمقام الخديوى عباس الذى تلكأ فى العودة إلى مصر فى ذلك الوقت .

وقد أصدر مجلس النظار قراراً جاء فى المادة ٣ منه :

« القوات البحرية والحربية لصاحب الجلالة البريطانية يجوز لها أن تباشر جميع حقوق الحرب فى الموانىء المصرية أو فى أرض القطر المصرى من سفن حربية ، أو مراكب تجارية أو بضائع يجوز إحالة النظر فيه إلى أحد محاكم الغنائم البريطانية » .

وكانت هذه خطوة لبقة من رشدى باشا ، التى أعلن فيها أن مصر لاتريد أن تساهم فى المجهود الحربى البريطانى ، ولكنها تريد مساعدة القوات البريطانيه بما لا يخرجها إخراجا تاما عن خطة الحياد التى يجب أن تتبعها .

وما كان رشدى بقادر على أن يسلك مسلكا آخر . فالإنجليز يحتلون مصر فعلا . ومسايرة خطة تركيا والخديوى قد تؤدى بالبلاد إلى كارثة محققة . .

ولكن الناحية الرسمية الشكلية لم تحل بهذا القرار . فما تزال مصر تابعة إسما للدولة العلية . وهى بهذا الوصف تعد بلداً معاديا لبريطانيا ، ويمكن ان تعامل معاملة الأعداء .

وأخذت المناقشات والرسائل تتوالى بين المعتمد البريطانى فى فى مصر السر ملن شيتهام ، وبين وزارة الخارجية البريطانية . . وكان من رأى وزير الخارجية إتباعا لنصائح كثيرين أن يلغى

عرش مصر ، وأن تلحق البلاد بالامبراطورية البريطانية[1] .
وكان من رأى الرجال البريطانيين الرسميين فى مصر — سواء فى دار الاعتماد أو فى قيادة الجيش — عدم الالتجاء إلى هذه الخطوة حرصا على هدوء الشعب ، وحتى لايستثار المسلمون فى كل مكان بهذا الاجراء .

واستمرت المداولات عدة أسابيع ، والتيارات تميل بالقضية ذات اليمين ، ثم ذات اليسار .

وأخيراً اتفقوا على حل وسط وهو اعلان الحماية على مصر ، واستجيبت رغبة رشدى باشا فى اعلان الاحكام العسكرية .

ووفق رشدى باشا إلى أن يحصل من الانجليز على تأكيد رسمى بألا تشترك مصر فى الحرب ، وأن تتكفل بريطانيا بكل مقتضيات حربها ضد دول الوسط وتركيا .

وبقيت مسألة العرش بدون حل ، بعد أن رجحت كفة الرأى القائل بابقائه .

وكان مفهوما ، أن عباسا لن يعود — لا هو ولا ابنه — وأصبح المرشح الطبيعى للعرش أكبر أمراء الأسرة الخديوية وهو الأمير حسين كامل .

---

(١) تراجع التفصيلات الخاصة بهذا الموضوع فى كتاب لورد لويد Eygpt since Cromer الجزء الأول .

وكان الأمير حسين مزارعا كبيرا ، غير معنى كثيرا بالشئون السياسية ، ولكنه كان محبوبا من عامة المصريين . فلما عرض عليه العرش ، تأبى ، ورفض قبوله فى ظل الحماية . وظلت المحاولات لاقناعه مستمرة حتى وفق السر رونالد ستورس إلى الحصول على موافقته ، بعد تأكيدات كثيرة عن مستقبل مصر(١) .

وكانت هذه المفاوضات تدور قبل اعلان الحماية رسميا بطبيعة الحال ، ولكن كان مفهوما فى الدوائر العالية أنها الاجراء الطبيعى الذى ستلجأ إليه بريطانيا .

ولما قبل الأمير حسين العرش الذى رفضه مدة طويلة اعلنت الحماية فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ بهذا النص :

« يعلن ناظر الخارجية لدى حكومة ملك بريطانيا العظمى أنه بالنظر إلى حالة الحرب التى سببها عمل تركيا ، قد وضعت بلاد

---

(١) أيد رشدى باشا رئيس النظار هذا ، قبل أن يورده اللورد لويد فى كتابه فقال فى حديث له : « أما مسألة ضم مصر إلى الاملاك البريطانية فكانت فتحت قبل اعلان الحماية . وكانت لها فى بريطانيا دعاة وأنصار أقوياء ولا يزال لها فيها بعض الدعاة والانصار من ذوى النفوذ . وإن مصر قد اجتازت طوراً شديد الخطر حتى كاد كيانها السياسى يهوى إلى هوة بعيدة الغور والقرار . »

مصر تحت حماية جلالته ، وأصبحت من الآن فصاعدا من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية .

« و بذلك قد زالت سيادة تركيا عن مصر ، وستتخذ حكومة جلالته كل التدابير اللازمة للدفاع عن مصر وحماية أهلها ومصالحها »

وفى اليوم التالى صدر الاعلان الآتى :

« يعلن ناظر الخارجية لدى حكومة ملك بريطانيا العظمى أنه بالنظر لاقدام سمو عباس حلمى خديو مصر السابق على الانضمام لاعداء الملك ، قد رأت حكومة جلالته خلعه من منصب الخديوية . وقد عرض هذا المنصب السامى مع لقب سلطان مصر على سمو الامير حسين كامل باشا أكبر الأمراء الموجودين من سلالة محمد على فقبله » .

ولم تكن مهمة السلطان الجديد سهلة ولا ميسرة . فقد وجد نفسه فجأة فى أحرج مركز يمكن أن يوضع فيه حاكم أو أمير . كان أكثر حرجا من مركز أخيه توفيق . ذلك لأنه كان يتمتع بسمعة طيبة بين أبناء قومه . وكان عليه أن يوفق فى براعة بين حالة الاحتلال التى فرضت على بلاده ، و بين مطالب مصر التى وضعت أمانة فى عنقه . . كان عليه أن يوفق بين رغبات بريطانيا التى تشتبك فى حرب خطيرة ، هى حرب حياة أوموت بالنسبة لها ،

بين كرامة عرشه وكرامة وطنه ، وأن يخرج به من محنة الحرب وظرف الاحتلال سليما لم يثلم .

لم تسبق للسلطان خبرة واسعة فى شؤون السياسة . ولم يكن الوارث الأصيل لملكات أبيه الكبيرة فى الجرأة والدربة . ولكنه عوض هذا كله بطبيعة الخير والسماحة التى كانت تملأ نفسه . . عوض هذا كله بالحب العميق الذى كان يعمر قلبه لقومه و بنى وطنه . . .

كان عليه أن يحفظ التوازن فى مفرق الطرق الذى وجدت فيه مصر . .

فقد ترتب على إعلان الحماية أن انتهت إلى غير رجعة تبعية مصر للدولة العلية . وحق السيادة الذى كانت تفرضه تركيا العثمانية على أرض النيل . .

واستقلال مصر عن كل تبعية ، معناه استقلالها التام فى نظر القانون الدولى ، لولا ظرف الحماية الجديد الذى فرض عليها . وكان على السلطان وحكومته أن يجاهدا حتى يجعلا الحماية ظرفا موقوتا وأمرا طارئا مرهونا بالحرب العظمى ومقتضياتها ، ويوم تنتهى الحرب تنتهى الحماية، وتظفر مصر بمطمعها الأسمى، وهو الاستقلال التام . والمكانة المرموقة فى المجموعة الدولية .

ثم ان السلطان يعلم أن سلفه وابن أخيه عباس عزل عن العرش وأقام فى فينا ممالأة لدول الوسط ، وانتظارا للحوادث . وأخذ يتذرع بحجة ولائه للخلافة ، ولفكرة الجامعة الاسلامية ، لكى يبقى لنفسه حقوقا فى مقبل الأيام . .

والاستعانة بالعاطفة الدينية سلاح له خطره .

وفى الصلات الجديدة بين مصر وبريطانيا احتيط لهذا الأمر بمهارة . وفصل بين الحرب والسياسة ؛ و بين العاطفة الدينية التى تربط مصر بتركيا . فقد ورد فى التبليغ البريطانى للسلطان :

« ولا أرى لزاما لأن أؤكد لسموكم بأن تحرير مصر من ربقة أولئك الذين اغتصبوا السلطة السياسية فى الاستانة (يقصد جمعية الاتحاد والترقى) لم يكن ناتجا عن اى عداء للخلافة . فان تاريخ مصر السابق يدل فى الواقع على أن اخلاص المسلمين المصريين للخلافة لاعلاقة له البتة بالروابط السياسية التى بين مصر والاستانة » .

جلس السلطان اذن على العرش ، والخديوى السابق ينظر إليه . . وقد ذكر انه عندما أبلغ خبر عزله وهو فى فينا ، وتولية عمه مكانه قال : « فى محله » . . ولكن هذا « محل » لم يكن من الميسور أن يترك هكذا إلا أن تجبره عليه الظروف اجبارا . . . وقد أثر

عن عباس أيضاً انه قال : « اللهم لك الحمد . لقد حكمت ٢٣ عاما. وهو زمن ليس بالقليل فلك الشكر » .

كان الخديوى السابق ينظر إلى السلطان .

وكان الانجليز ينظرون إليه .

وكان حزب الاتحاد والترقى ينظر إليه .

وكان الخليفة والقوى الاسلامية كلها تنظر إليه .

وأخيراً ـ بل أولا وأخيراً ـ كان المصريون ينظرون إليه . .

وفى وسط أمواج الشكوك والريب وضع عرش مصر ، وكان على السلطان أن يستعين بربه لكى يعينه فى ظرفه . . وقد استجاب الله لدعائه وأعانه بعد طائفة غير يسيرة من المتاعب .

ولما انقضت أيام السلطان حسين ، وأوشك أن يلقى ربه كان يتمتع بعطف شعبه الذى فقده فى الأيام الأولى من حكمه ، وقدر له المصريون جميعا صدق نواياه ، ومدى الخدمة التى أداها لبلاده بقبول العرش فى أعصب ظرف مر على هذا العرش . .

وإلى جانب ولاء المصريين له حمدت له السلطات الانجليزية استقامته وحسن تصرفه ، وإيمانه الذى لم يتزعزع بانتصار الحلفاء على دول الوسط ، فلما وافت منيته عد فقده خسارة كبيرة .

وكان مفروضا أن ابنه الأمير كمال الدين حسين سيلى الأمر

بعده . . ولكن الأمير رفض ، وأبلغ أباه هذا الرفض . ومع هذا ظل السلطان ، إلى اللحظة الأخيرة يرجو أن يقتنع ابنه بولاية السلطنة من بعده . . فلما كتب له الأمير فى ٨ اكتوبر سنة ١٩١٧ كتابا رسميا يبلغه فيه تنحيه عن هـذا الأمر(١) أصبح المرشح الطبيعى والوحيد هو الأمير احمد فؤاد أخوه ، وأرشد أمراء الأسرة العلوية . .

وقد أضيف اسم آخر إلى جانب اسم الامير فؤاد إذا ظهر ظرف يحول دون توليه ، وهو إسم الامير يوسف كمال . .

وهـذا الظرف هو أن الامير فؤادا لم تـكن له ذرية فى ذلك الوقت ينتقل إليها التاج من بعده . .

إلا أن هـذا الاعتراض استبعد ، وأصبح الامير فؤاد ولى العهد . . .

---

(١) مما ورد فى هذا الـكتاب الهام « وانى لأذكر لعظمتكم هذه المنة الـكبرى لمـا فى هذه الرغبة من التشريف لى . على انى مع اخلاصى التام لشخصكم الـكريم وحكمـكم الجليل، مقتنع كل الاقتناع بأن بقائى على حالتى الآن يمكننى من خدمة بلادى بأكثر مما يمكن أن أخدمها به فى حالة أخرى لذلك أرجو أن تأذنوا أن أتنازل عن كل حق أو صفة أو دعوى كان من الممكن لى أن أتمسك به فى ارث عرش السلطنة المصرية بصفتي ابنكم الوحيد »

ولم تطل هـذه الولاية للعهد إلا ساعات ، فقد أسلم السلطان حسين الروح ، وقبل أخوه العرش ولقبْ السلطنة . .
وعندما رثى رشدى باشا السلطان الراحل قال عنه : سيلقبه التاريخ حقا وعدلا بهذا اللقب الجليل « أبو الامة[1] »

■ ■ ■

تولى فؤاد الأول عرش السلطنة وكتب إلى رئيس النظار رشدى باشا ماملخصه :

« عزيزى حسين رشدى باشا .

« يعلم رعايانا انه بسبب وفاة سلفنا وأخينا المحبوب المغفور له السلطان حسين الأول الذى اختطفته المنية قبل الأوان ، وملأت القلوب حزنا عليه قد تولينا عرش السلطنة المصرية .

« منذ سنوات كان يظهر أن حدود بلادنا مهددة . وكانت ثروتنا الزراعية توشك أن تصاب فى مصادرها . وقد ابى سلفنـا

(١) قال حسين رشدى باشا عن السلطان حسين : « متى كتب التاريخ الصحيح لهذه الفترة التى تقدمت بسط الحماية الانكليزية على مصر ، سيرى الجميع ويعرفون أن حسينا الأول إذا كان قد قبل عرش مصر ، فانما قبله بدافع وطنى محض » .

وذكر عن محاولات الاغتيال التى تمت فى ذلك العهد : «انهم لو نجحوا فى ابعادنا عن الوزارة فانهم ولا شك يكون لهم وزراء من الانجليز »

رحمه الله نداء الواجب وتفانى فى إخلاصه لمرافق البلاد ، فلم يتردد فى حمل أعباء السلطة مع ما كان يحف به من المصاعب . واعتمادا على ولاء رعاياه ، وعلى تأييد الدولة الحامية وقف نفسه مدة هذه السنوات الثلاث على تنفذ المنهـاج الذى اختطه فى المرسوم الصادر منه الى دولتكم عند ارتقائه عرش السلطة . وقد صار وضع أسس التعليم وبحث موارد ثروة البلاد والشروع فى الوسائل التمهيدية التى من شأنها **احلال مصر فى مكانة الكرامة اللائقة بها فى العالم الذى سيتجدد على أثر انعقاد الصلح .**

«ونحن اليوم ننشد ذلك نفسه من رعايانا فى ظروف هى أكثر عنا وتوفيقا . فقد زالت الأخطار التى كان يظهر أنها تهدد بلادنا ، وعادت ثروة القطر المصرى الى ما كانت عليه **وبقى علينا أن نخصص أنفسنا بالاشتراك مع نواب الأمة اشتراكا يزداد على الدوام** لاتمام تنفيذ ذلك المنهاج الذى اختطه سلفنا . وأن نحقق فى جميع الفروع **الاصلاحات التى من شأنها ضمان التقدم المادى والأدبى** فى بلادنا .

« ولما كنا على يقين من خبرتكم ومن صفاتكم السامية . فاننا نوجه الى عهدتكم مهمة تأليف الوزارة .

«ومن الله نلتمس الاعانة على ما نحن قادمون عليه من العمل»

وهـذا البرنامج الذى ضمنه السلطان الجديد خطاب توليته يتلخص فى ثلاث مسائل كبرى :

الأولى ــ احلال مصر مكانة الكرامة اللائقة بعـد الحرب ــ وهذا فى باب السياسة .

الثانية ــ الاشتراك مع نواب الأمة فى الحكم ــ وهذا باب الدستور .

الثالثة ــ الاصلاح الشامل فى مرافق الأمة كلها ــ وهذا باب النهضة .

وقد حافظ فؤاد الاول على كلمته ... وعمل فى النواحى الثلاثة بجد ، لا يكل ولا يمل ...

فماذا عمل ، وكيف سار . . هذا هو موضوع كتابنا ولكن فى الناحية الثانية والثالثة . أما الناحية السياسية فسنشير إليها اشارة خفيفة فى مواضعها .

مطلع الفجر

١

دستور اسماعيل

ما أعظم الشبه بين الظرف الخـاص الذى تولى فيه اسماعيل العرش فى سنة ١٧٦٣ ، والظرف الخاص الذى تولى فيه ابنه فؤاد هذا العرش فى سنة ١٩١٧ . فلم يكن أحد منهما عند مولده و فى صدر شبابه وليا للعهد ، ولا كان ينتظر أن يلى أمر المصريين لوجود الورثة المباشرين للعرش ، وللطبقة التى تليهم من البنين .

ولكن هذا البعد عن منصب ولاية العهد ، لم يكن يعنى أن كلا الأميرين لم يكن يرمق العرش ، ويرجو أن تتاح له فرصـة لـكى يظهر مواهبه العالية عن طريقه . فقد كانت نفساها — كل فى وقته — ممتلئتين بالرغبة فى العمل ، وبمشروعات الاصـــلاح ، وبمتابعة السير على النهج الذى سار عليه جدهم الكبير محمد على ... وإلى جانب الشعور بالقوة الذاتية كان الأميران يؤمنان بأن فى

استطاعة مصر أن تصنع العجائب إذا ألهم حاكمها خطة السداد فى قيادتها . .

ويظهر أن أبواب السماء كانت مفتوحة ، فاستجابت للرغبتين، كل فى حينها .. أما اسماعيل، فقد قفز إلى ولاية العهد عند ماغرق قطار بأمراء البيت المالك فى كفر الزيات، ومنهم ولى العهد وتاليه.. بات اسماعيل فردا عاديا ، وأصبح الأمير الثانى فى البلاد .

وكذلك حدث مع الأمير فؤاد . فعند ما قدم من أوربا إلى مصر بعد طول مقامه بهـا ، لم يكن يعلم أن الزمن سيلد حربا ، وأن الحرب ستبدل من كل شىء ، وأنه ـ بعد صبر طويل ـ سيرتقى عرش مصر ، الذى شهد أباه وأخاه وابن أخيه وأخاه الثانى يتسنمون ذروته قبله . .

وكان إسماعيل ـ عندما أصبح وليا للعهد ـ مضطرا لأن يخفى شخصيته الحقيقية عن أعين سعيد الاول(١) ، حتى لا يستثير ريبه فعكف على مزارعه ، وأعماله الخاصة ، وكأنما لم يخبره أحد أنه قد

---

(١) قال قنصل أميركا فى ذلك الوقت ـ أودين ده ليون : « لا شك ان إسماعيل قام بتمثيل دور « بروتس » خير قيام فى أثناء المدة التى كان فيها « القيصر » حياً . فلم يكن أقرب المقربين إليه ليدرى بالهمة التى كانت كامنـة بين ضلوعه . والمطامع التى كانت نعومته وخطته المتحفظة تسترها » .

أصبح الامير الثـاني في البلاد . ذلك لأن سعيدا كان كثير الريب والحذر . ولو أنه أحس من وارثه بنشاط غير عادي ، أو شخصية متفوقة في المجتمع ، فقد يبدل في نظام الوراثة تبديلا يقصي إسماعيل عن المكان الذي هيأته له الأيام .

وكما كان اسماعيل يخشى غدرات عمه سعيد . فكذلك ابنه الامير فؤاد ، لم يكن على ثقة من أن الامر سيؤول إليه في مقبل الايام . ولكنه كان يحس في دخيلة نفسه ، أن الله سيعده لدور كبير في حيـاة أمته . وكانت الوسيلة الوحيدة التي تؤهله لهذا الدور في ظروف كالتي كانت تجتـازها مصر إذ ذاك ، هي أن يبتعد عن السياسة ، وألا يكون له فيها دور واضح . . ولو أن نوايا الامير الحقيقية وخطته التي كان ينوي أن يسير عليها وهو أمير حاكم قد تجلت أو عرفت عنه ، فربما كان هذا يبعده عن غرضه أشواطا ، بقدر ما كان يدني غيره . .

ومع هذا لم يطق الامير فؤاد — كما لم يطق أبوه من قبله — أن يبقى خاملا ، وهو يقضي فترة الانتظار الطويلة . . وقد آثر الأب أن يعمل في الزراعة ، ويخفي مواهبه عن الناس ، ويظهرها لأعواد النبـات ، وأنواع الزروع والثمار . وقد تجلت مقدرة اسماعيل مزارعا على أحسن وجـه ، حتى أصبح من أغنى الامراء ، ومن

أكثرهم دراية بالحقل وحاجاته ، وأكثرهم بعدا عن المدنية ونزقها وطباعها . . فقد عرف عنه فى هذه الفترة أنه محافظ ، بخيل . أجل بخيل . . وكانت النقطة القاتمة فى شخصيته عند ما تولى أمر مصر ، هى شح يده . ذلك لان التوفر على جمع المال عن طريق الزراعة البطىء يورث هذه الصفة... بعكس جمعه عن طريق التجارة أو الصناعة . . وكان دخل اسماعيل قد بلغ ١٦٠ ألف جنيه فى العام من مزارعه النموذجية التى كان يديرها ، وهو مبلغ ضخم فى وقت كانت الاسعار فيه منخفضة إلى أدنى حد . .

ولم يعمل الامير فؤاد فى الزراعة ، كأبيه ، ولكنه أخفى ذات نفسه ، وصرف همته ونشاطه فى الرحلات والمشاريع العلمية التى كان يغرم بها . وبدلا من أن يختم ميزانية عامه بكذا جنيه صرفها ، وكذا جنيه ربحها . . كان يختمها بكم شاب علمهم ، وبكم مصرى أوفدهم إلى أوربا ، وفتح أمامهم أبواب جامعات الغرب .

فلما آل إليه الامر بعد أخيه حسين ، وبعد تنحى ابن أخيه عن ولاية الامر ، كان قد بلغ الخمسين من عمره .. وفى مثل هذه السن لا يسهل على الانسان أن يغير من طبيعته أو خلقه شيئا . ففؤاد الامير ، هو فؤاد السلطان ، هو نفس فؤاد الملك الذى سنراه بعد حين .

وقد ذكرنا ونعود فنذكر بأن السلطان الجديد ، تربى على يدى أبيه تربية مباشرة ، وفر لها الوقت هذا المنفى الذى رد إليه اسماعيل وكان يعرف دقائق سياسته ، وخفاياها كما لم يعرفها إنسان . . .

وأراد السلطان الجديد ، وفاء منه لأبيه ، وتأثرا بخلقه الذى أخذه عنه ، أن يتابع خطط الاصلاح التى سار عليها ، وألا يتورط فيما تورط فيه . .

وقد ختم اسماعيل صحيفة حكمه ، بمحاولة جريئة قوية حاولها لإدخال النظام الدستورى فى مصر ، وإقرار هذه الشرائع المحدثة التى سارت عليها أمم أوربا الراقية ، فجمع على أساسها برلمانا ، مثل فيه الرأى العام واتجاهاته أصدق تمثيل ، وأراد أن يعتمد اعتمادا صحيحا على الشعور الوطنى المصرى[1] .

---

(۱) فى كتابنا عن « محمد عبده » أوردنا حديثا عن الخديوى السابق تحدث به إلى جريدة التيمس ورد فيه :

« قد يكون من السهل عليكم أن تحكموا مصر بهذا الوالى أو ذاك ، إذا استعنتم بالشعور الوطنى . أما إذا قاومتم هذا الشعور ، فلا أقول انكم لاتستطيعون ان تحكموها بهذا أو ذاك ، ولكن عليكم أن تقرنوا ذلك بالقوة والعسف » ص ٤٣

وموضوع الدستور والحياة النيابية الصحيحة فى مصر من أهم المواضيع وأخطرها . ولذا فسنستطرد قليلا لكى نصور كيف تطورت هذه الحياة فى آخر عهد اسماعيل ، وأصبحت أداة لها كل القيمة وكل الخطر . وهى الاداة التى أراد « فؤاد الاول » أن يستعين بها نفسها لكى تكون عدته فى إنهاض مصر والسير بها إلى أمام .

وسنرى أن مجلساً نيابياً فى آخر عهد اسماعيل ، تمكن من مجابهة حكومة أرادت أن تعبث بالدستور ، ولم تكن حكومة ضعيفة ولا واهنة ، وحسبنا أن نذكر أن وزير داخليتها كان رياض باشا أشهر وزراء عصره وكان رئيسها ولى العهد توفيق باشا

■ ■ ■

فى يوم ٢٧ مارس سنة ١٨٧٩ انعقد مجلس شورى النواب ، تحت رياسة المرحوم احمد رشيد باشا ، وقال :

— عطوفتلو افندم رياض باشا ناظر الداخلية شرف الجلسة يحمل أمرا عاليا سيتفضل بتلاوته على حضراتكم . .

رياض باشا — قبل أن أتلو على حضراتكم الأمر العالى الصادر من مولاى ومولاكم أقدم لحضراتكم جزيل تشكرات الحكومة على ما أبداه المجلس من النشاط فى نظر المسائل التى عرضت عليه . وإنى أتلو على حضراتكم الأمر العالى المشار اليه .

« نحن خديوى مصر .

« بناء على ماحواه البند التاسع من لائحة مجلس شورى النواب من أن مدة توليتكم عن الأهالى تكون ثلاث سنوات ، وما عرض علينا من مجلس النظار من أن المدة قد انقضت أصدرنا أمرنا بانفضاض المجلس وكلفنا ناظر داخليتنا بتنفيذ ذلك .

اسماعيل

تحريرا بمحروسة مصر فى ٢٦ مارس سنة ١٨٧٩ .
بأمر الحضرة الفخيمة الخديوية رئيس مجلس النظار .

توفيق

عبد السلام بك المويلحى ــ لا أرى معنى لتشكرات الحكومة لنا فاننا لم نقم بعمل إلى الآن يكون له ولو شبه فائدة قد عادت أو ستعود على البلاد . فما هى المآثر التى سنتركها وراءنا لتشكرنا عليها الحكومة فيما لو فرضنا المستحيل وانفض المجلس ؟؟!

عطوفتلو رياض باشا ــ مستحيل . . ينفض المجلس ؟!! ماذا تقول حضرتك ؟!

مستحيل فض المجلس !! كيف يكون فض المجلس مستحيلا بعد أمر خديوينا المعظم ؟!

هل حضرتك فاهم جيداً قيمة مسئولية ماتقوله الآن !؟

عبد السلام بك المويلحى ــ نعم أنا فاهم وفاهم جيداً جداً ماقلته ومقدر مسئولية ماأقوله تماما . .

رياض باشا ــ هل حضرتك تتكلم عن نفسك فقط ؟ وهل اخوانك يوافقونك على هذا الكلام ؟ ما أظن أن حضراتهم يوافقونك على ذلك مطلقا ؟؟

محمود بك العطار (سر تجار مصر) ــ موافقون البك المويلحى على ماقاله ياعطوفة الناظر .

عثمان افندى غزالى ــ أنا والله أوافق المويلحى بك بجوارحى على أقواله وأفــكاره .

عبد الشهيد افندى بطرس ــ أوافق عبد السلام بك المويلحى على ماقاله وما سيقوله مقدما .

عطوفتلو رياض باشا ــ إذن أنتم جميعا عصاة !!

عبد السلام بك المويلحى ــ حلمك ياباشا لاتغضب سريعا ! والآن الحمد لله قد ظهر لعطوفتك موافقة اخوانى لأقوالى وهم يعرفون كلهم مقدار المسئولية التى قلت عنها عطوفتك ويقدرونها حق قدرها .

فاعلم ياعطوفة الناظر ان من الغريب أن تحمل لنا أمرا عاليا اليوم يقضى بفض المجلس وهذا الأمر العالى مبنى على غلطة جوهرية فاضحة لأنها فى الواقع مغالطة مزرية من الحــكومة السنية لمجلس نواب أمتها . وهى كيف جاز للحكومة أن تبنى الأمر العالى بفض المجلس على أن مدة انعقاده ــ وهى ثلاث سنوات ــ قد انتهت ؟

ومع ان الحــكومة تعلم والنواب يعلمون جميعا أن تاريخ الديكريتو الذى صدر بانعقاد هذا المجلس وبتعيين سعادة احمد رشيد باشا هذا رئيساً للمجلس هو يوم ٢٦ ديسمبر ســنة ١٨٧٨ فلم يمض إذن على دور المجلس سوى سنة وثلاثة أشهر . فــكيف أصبحت هــذه المدة على حساب الحــكومة ثلاث سنوات ؟!

رياض باشا ــ أما حساب عجيب وغريب ياحضرة النائب .

ان مدة انعقاد المجلس هى بدء النطق الــكريم الذى صدر من مولانا الخديو المعظم فى حفلة طنطا(١) . فأحسب حضرتك تجد ان المدة فاتت وزيادة

(١) ورد ذكرها فى الوقائع المصرية بالعدد ٦٧٢ فى ٢٧ أغسطس سنة ١٨٧٦

عبد السلام بك المويلحى ــ ماهذا الكلام ياعطوفة الباشا حفلة طنطا!! وما هى حفلة طنطا ؟! ومالنا وحفلة طنطا الآن ؟! وما هو مقدار رسمية حفلة طنطا .. وما قيل من الخطب رداً على مافاه به سمو الخديوى المحبوب فى تلك العزومة لحضرات المدعوين اليها ؟؟

إن الغريب والعجيب هو حساب الحكومة لاحسابنا .. عزومة شرفها سمو الجناب العالى وتناول الطعام مع المدعوين اليها وقيل فيها كلام أو خطب من سموه ومن المدعوين ولم يدون منه حرف واحد على الاطلاق لا بطريقة رسمية ولا شبه رسمية تفيد أن كلام سموه فيها كان أمراً عاليا له قيمة القانون ويؤثر فى مدة انعقاد مجلس شورى النواب وتحديد تلك المدة .

أليس إذن هذا الكلام عجيبا وغريبا من عطوفتكم لا منا ؟!

ابراهيم افندى الوكيل ــ عجيبا جداً .. بالله اتركوا عزومة طنطا وما حصل فيها . وخلوا على رأى المثل العامى (زكايب الهم مقفولة) .

رياض باشا ــ يعنى حضراتكم تقلدون نواب فرنسا الذين ثاروا على حكومتهم ؟

يعنى حضراتكم الآن بعمائمكم وجببكم مثل نواب أوروبا وأمريكا .

احمد على العويسى بك ــ ياباشا انت الآن شتمتنا ... ماهذا الكلام ؟! يعنى عطوفتك شتمت نواب أمتك التى تعطيك أنت وغيرك مرتباتكم الشهرية.

عبد الشهيد افندى بطرس ــ أنا أعتبر هذه العبارة إهانة من ناظر الداخلية للمجلس . وأطلب إثباتها فى المحضر . وأقول لعطوفتك أن كلامك هذا وقاحة وإن المجلس لايقبل من ناظر الداخلية هذه الوقاحة بل يردها له

شيخ العرب احمد الصوفانى ــ أوافق حضرة العضو على رد هذه الاهانة

للناظر وأطلب من المجلس أن ينظرها فيما بعد ليحاسب عطوفته ان فى البلاد أمة حية ولها نواب أحياء يدافعون عن كرامتها وكرامتهم .

عبد السلام بك المويلحى — أسمعت ياباشا ؟؟.

أرأيت عاقبة تسرع عطوفتك فى الكلام وعدم ضبطك لعواطفك كما قلت لك فى أول كلامى ؟؟

ياباشا ! اعلم ان المسألة ليست مسألة زى وثياب بل المسألة مسألة نواب لهم عقول تفهم جيداً رغائب الأمة التى أنابتهم عنها . واعلم ياباشا ان أهل وطنك ليسوا بأقل شعوراً عما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات مثل الأمم الأخرى التى هى فى الواقع أقل منا كثيراً فى المكانة المالية والعمرانية كصربيا وبلغاريا وغيرهما . ثم ثق إن كنت تعتقد أن مصر لم تتمخض ولم تلد سوى عطوفتك من عهد رمسيس إلى الآن ... إنك غلطان جداً وألف غلطان ياباشا . ألم يكن من العيب الكبير وأنت وزير وزارة يزاملك فيها وزير انكليزى وآخر فرنسوى وهما فى الحقيقة خفيران عليكم وعلى الحكومة ثم تجمع أمس مساء أمام هذين الوزيرين الأجنبيين أصحاب الجرائد ، وهم ميخائيل عبد السيد وتقلا وأديب اسحاق وسليم النقاش وغيرهم وتقول لهم إن الحكومة عزمت على فض مجلس شورى النواب غداً فالحذر كل الحذر من أن تنشروا كلمة واحدة على هؤلاء النواب فى جرائدكم لأنهم ناس جهلاء وهمج ؟

تقول ذلك ياباشا عن نواب بلادك مصر العزيزة ولا تزن قولك قبل صدوره منك . ولا تتألم فى نجواك من صدوره عنك ثم تكرره تقريباً أمامنا اليوم مع أنك فى الحقيقة « أعرق منى مصرية » .

ياباشا اننا جميعا قرأنا فى الأزهر الشريف وفى غيره المعقول جميعه من

علوم البلاغة والأدب والفلسفة والأصول والمنطق وكذلك قرأنا المنقول من تفسير وحديث وفقه وتوحيد .

ولـكن خبرنى بالله عطوفتك ماذا قرأته وتعلمته أنت من كل ذلك ؟ وأين كنت تدرسه وتتعلمه .

الشيخ الصباحى — تعلم ودرس فى اورطة المفروزه !

عطوفتلو رياض باشا — هـذه وقاحة . هذه إهانة لا أقبلها ولا أسمح بها لأحد .

حسن افندى عبد الرازق — ان ماقاله حضرة عبد السلام بك المويلحى هو إعراب عن أفـكارنا ومطابق مطابقة تامة لآرائنا . ولا يشذ عنه أى فرد منا وكلنا متحملون مسئولية هذه الأقوال مهما عظمت . أليس كذلك يا اخوانى ؟

أجاب جميع الأعضاء :

نعم . نعم . نوافق على جميع ماقيل من إخواننا النواب فى هذه الجلسة .

عطوفة رياض باشا — إذن أنا منسحب .

وهنا هم رياض باشا بالقيام منسحبا من قاعة الجلسة وقائلا بأعلى صوته .

أنتم عصاة .. أنتم ثوار .

وكرر هذا القول حتى خرج من قاعة الجلسة .

عند ذلك قال عبد السلام بك المويلحى — يامصطفى باشا وهبى . بصفتك سكرتير عام المجلس لاتحذف حرفا واحداً مما قيل فى كتابة المحضر حتى إذا نقلته الجرائد اليوم علمت الأمة والنـاس جميعاً من هم الهمج . النظار أم النواب .

ثم طلب عبد السلام بك المويلحى من هيئة المجلس قرارا باستمرار الجلسة

منعقدة ليل نهار فوافق المجلس بالاجماع . بما فيهم سعادة الرئيس على هـذا الطلب . واستمر وجود الأعضاء بالمجلس وقاعاته بلا انقطاع واتفقوا على أن يكون ثلث الأعضاء بالتناوب يبقى فى المجلس ليلا ويبيت به ويحضر بالنهار سائر الأعضاء وتستمر الجلسة منعقدة .

وقد اتفق حضراتهم على إحضار طعام العشاء ليلا لمن كان عليهم الدور من اخوانهم فى المبيت . وقد بدأ ابراهيم بك الجيار باحضار الطعام جميعه وكان كثيراً وفاخراً جداً فى الليلة الأولى .

وبعد ذلك استقالت الوزارة .

وفى ٨ ابريل سنة ١٨٧٩ تشكلت وزارة وطنية برئاسة شريف باشا على أن تكون مسئولة أمام مجلس النواب .

وفى يوم ١٠ ابريل سنة ١٨٧٩ الموافق ١٨ ربيع آخر سنة ١٢٩٦، تلى سعادة رئيس المجلس على حضرات الأعضاء خطابا من دولة وزير الداخلية ونصه حرفيا كما ورد فى الوقائع المصرية الصادرة فى ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢٩٦ .

« ولو أنه كان تقرر بمجلس النظار السابق عن انفضاض مجلس شورى النواب لانقضاء مدته حسبما تحرر لسعادتكم فى ربيع آخر رقم ٣١ لكن حيث أن مقتضيات الأحوال مستلزمة إبقاءه للمذاكرة .والمفاوضة معه فى بعض مواد مهمة قد تقرر بمجلس النظار الذى تشكل الآن استمراره واقتضى تحرره لسعادتكم للاحاطة بذلك وتفهم حضرات أعضائه بعدم الانصراف »

امضاء
شريف باشا

وبجلس ١٧ مايو سنة ١٨٧٩ طلع شريف باشا على هيئة المجلس (فطلع البدر عليهم) وقال انه يقدم للمجلس اللائحتين المتعلقتين بأساس المجلس وبالانتخاب وقد أحضر معه اللائحة الأساسية (الدستور) أما لائحة الانتخاب الجديدة فهي تحت النظر بمجلس النظار .

وفى اليوم الثانى شكل المجلس لجنة من أعضائه للنظر فى اللائحة التى قدمها إليه شريف باشا . اهـ .

■ ■ ■

نعتذر مرة أخرى عن هذا الاستطراد ، ولكننا قصدنا منه أن نبين أن السلطان الجديد ، تولى عرش مصر ، وفى نيته أن يحسن إلى ذكرى ابيه ، وما من احسان أجمل وأكمل ، من أن يتم ما بدأ به اسماعيل ، وأن يقر لمصر دستوراً ، وأن يشرك الشعب فى الحكم على أحسن النظم ، وأمثل الوسائل التى ترتقى بها الأمم .

ولقد حسب بعض الناس ، أن فؤادا الأول وهو سلطان ، ثم وهو ملك ، لم يك دستورى الروح ، وأن الاستئثار بالسلطان المطلق كان من شيمه وخلائقه . . وسرى هذا الوهم إلى هؤلاء المتعجلين فى الأحكام ، لأنهم فسروا الخلافات الكثيرة المستمرة بين القصر و بين الوفد على غير وجهها . وجمعوا بين طريقة تطبيق الدستور التى كان للملك رأى فيها يخالف رأى الوفد ، وبين

الدستور نفسه، روحاء ونظاما ، وأسلوبا للحياة تعيش عليه الأمة .

بدأ العمل على استئناف الحياة الدستورية المصرية بعد أن هدأت عواصف الثورة السياسية ، واستقرت إلى حد ما حدة الكفاح بين المصريين وبين سلطات الاحتلال . ولم يك هذا الوقت متأخراً ، ولا كان متقدماً .

فما كان فى الامكان والحرب مشتعلة الاوار ، أن يبدأ وضع الدستور . وما كان ممكنا والثورة الداخلية متأججة النيران ، أن يشرع كذلك فى وضع الدستور .

كما أنه لم يكن مستساغا أن تعاد إلى الوجود لائحة الجمعية التشريعية ، أو مجلس الشورى ، وقد صيغت فى وقتها على أضيق نطاق ، ولم توضح حق الأمة ولم تضمن حرياتها،ولم تحدد المسئولية الوزارية تحديدا واضحا .

ومن الخطأ أيضا أن يظن فى أمة تتعدد فيها سلطات الحكم وجهات النفوذ ، أن يعمد الجالس على عرشها إلى سلطة غير سلطة الأمة يستمد منها قوته ونفوذه . ومهما كان الاعتماد على هذه السلطة منقصا من رغبة الحاكم الفطرية فى الاستئثار بالنفوذ ، إلا أنه آمن عاقبة ، وأسلم سبيلا من الاعتماد على القوة ، أو الحماية الاجنبية . وقد جربت مصر فى عهد الخديو يين الحالات كلها ،

كما جرب الجالسون على عرشها هذه الحالات نفسها،وآمن الجميع حاكمين ومحكومين ، بأن العرش الدستورى هو أقوى العروش ، وأثبتها أساساً . . وإلا فهل كان عبثا أن ينزل مثل اسماعيل ، فى سطوته وقوته وتفرده بالسلطان المطلق ، عن هذه الحقوق لنواب البلاد ، ويدعو شريف باشا « ابو » الدستور المصرى ، لكى يلى الأمر على النحو الذى فصلناه ، إلا بعد اقتناع وبعد تجارب مرة شاقة طويلة ، بأن هذا الطريق هو آمن الطرق ، واصلحها .

على هذا النحو وطد فؤاد عزمه ، ولكنه كما قلنا كان صبوراً . . ولم يضع مع هذا وقته .

فهو عما قريب سينزل عن سلطانه لنواب الأمة.ولكى يكون أمره وأمرهم مستقيما ، أنفق السنين السابقة — خمساً أو ستاً — فى التعرف على كبار رجال أمته وأصحاب الرأى فيها . يستدعيهم ويجلس معهم ، ويسمع منهم ويقول لهم .

وكان يريد أن يمهد لهذه الصبغة الدستورية التى أرادها لحكمه ، تمهيداً حسناً ، لبقاً ، ففكر فى أن يضيف إلى وزارة رشدى باشا وزيرين جديدين ، يمثلان الرأى العام الجديد تمثيلا حسنا ، ويكونان عدة للمستقبل ، وتجربة مأمونة العاقبة فى

وقتها . فاقترح على السلطات الحامية ، أن يدخل سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعية إلى الوزارة . وأن يدخل فيها كذلك عبد العزيز فهمى ، عضو هذه الجمعية (١).

وهذه فطنة ليست غريبة على السلطان فؤاد أن يختار هذين الرجلين من بقية الرجال . كان ذلك عام ١٩١٧ . ولم يكشف له القدر عن حجابه .. ولو أن هذا الحجاب رفع، عن عامين تاليين، لرأى السلطان أن هذين الرجلين ، اللذين قدر قيمتهما فى بنية الشعب المصرى ، ومعهما ثالث هو شعراوى ، قد أشعلا شرارة الحركة الاستقلالية فى الامة .

ولم يقبل اقتراح السلطان . واكتفى لارضائه باخراج فتحى باشا وزير الاوقاف الذى كان مكروها منه ، واستبدل بزيور باشا . وهذا هو التعديل الوحيد الذى تم، والذى لم يحقق رغبة السلطان كاملة . .

يقول الأستاذ العقاد فى كتابه عن سعد :

« الملك فؤاد أقوى شخصية ملكية ظهرت على عرش مصر بعد جده محمد على الكبير . واسع الاطلاع عظيم الخبرة ، نافذ

(١) Egypt. Since Cromer P. 274 P.i 1

التفكير فى شئون السياسة ، تولى الملك وهو فى أوائل الشيخوخة فقضى ست سنوات أو سبعاً لا تبدر منه حركة ، ولا يشعر الناس له بسيطرة فى الحكومة أو فى الحياة الشعبية . فأخطأ الكثيرون فهم هذا السكوت أو هذا الانتظار، وحسبوه ضعفاً وخمولا وقناعة بما وصل إليه من الملك بعد أن كان الوصول إليه فى رأيه ورأى الآخرين حلما من الأحلام .

« ولكنه فى الحقيقة لم يكن ضعفا ولا خمولا ، وإنما كان تدبيراً مقدراً ، وتأهباً مدخراً إلى حين . . . فلبث الملك أحمد فؤاد يترقب ويتأهب فى هذه السنوات ، وطفق يجمع المعلومات ويستمد الانصار فى فترة سكونه الطويل ، فلم تنقض تلك السنوات حتى كان قد أحاط بكل كبيرة وصغيرة من دخائل الكبراء والسراة ورؤساء الحكومة . وعرف من أين يستمالون ومن أين يرجون ويخافون » .

وقبل أن نستطرد إلى الحديث عن الحياة الدستورية فى عهد فؤاد الأول يحسن أن نشير إلى حوادث هامة وقعت قبل اعلان الدستور عام ١٩٢٣ .

■ ■ ■

ففى خلال هذه الفترة الهادئة فى القصر، فترة التأمل والدرس،

صدر دون دعاية أو اعلان طويل ، بلاغ رسمى ، يعلن اقتران عظمة السلطان فى ٢٤ مايو سنة ١٩١٩ ، وهذا نصه :

« نظر حضرة صاحب العظمة مولانا السلطان فؤاد الأول »
« سلطان مصر المعظم ، بعين الحكمة العالية الدينية إلى »
« وجوب التمسك بما وصى به الدين الحنيف من أمر »
« الزواج والاهتمام به ، عملا بسنة رسول الله صلى الله عليه »
« وسلم . فرأى وفقه الله وأسعد أيامه إنجاز ما عقد عليه »
« عزمه الشريف نحو ذلك . وتم عقد القران السلطانى »
« السعيد بقصر البستان فى صبيحة أمس ، على سليلة »
« بيوتات المجد والشرف حضرة صاحبة العظمة السلطانية »
« نازلى . وقد تولى مولانا السلطان أيده الله قبول العقد »
« لنفسه بنفسه اجلالا لأحكام الشريعة المطهرة حيث كان »
« الوكيل عن عظمة السلطانة حضرة صاحب المعالى »
« والدها الماجد عبد الرحيم صبرى باشا وزير الزراعة حالا »
« بشهادة كل من حضرات أصحاب المعالى محمود شكرى باشا »
« رئيس الديوان العالى السلطانى وسعيد ذو الفقار باشا »
« كبير أمناء الحضرة السلطانية . وقد باشر صيغة العقد »
« المبارك حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد ناجى رئيس »



رشدی باشا

« المحكمة العليا الشرعية، بحضور حضرة صاحب الفضيلة »
« الشيخ احمد هارون رئيس محكمة مصر الابتدائية »
« الشرعية .

و بعد أن ذكر البلاغ المهنئين قال :

« . . جعله الله قرانا سعيدا محفوفا باليمن والبركات ، عائدا »
« على البلاد بالخير والسعادات ، بجاه سيد العرب والعجم ، »
« القائل انى مباه بكم الأمم . صلى الله عليـه وعلى آله »
« الطيبين الطاهرين »

■ ■ ■

ولم تكن الحالة الاقتصادية فى مصر عنـد ما تولى السلطان الجديد العرش ، مما يبشر براحة واطمئنان . فقد توسعت السلطة العسكرية فى طلباتها ، وأدت قلة الواردات إلى ارتفاع كثير فى الاسعار ، ارتفاعا يشبه من بعض الوجـوه ارتفاع الاسعار فى هذه الأيام من الحرب الحاضرة . .

وكانت الأزمة الاقتصادية واضحة فى بعض المواد الرئيسية وضوحا شديداً ، يذكره الذين عاصروا تلك الحرب وهم كبار . فقد قلت المواد البترولية قلة شديدة أدت إلى صرفها عن طريق البطاقات . وارتفع ثمن الصفيحة من عشرة قروش إلى ٢١ قرشا

وزاد سعر الدقيق ثلاثة أضعاف ونصف..ضعف ما كان عليه قبل وارتفع سعر لحم الضأن من اربعة قروش للرطل إلى عشرة قروش . وهكذا . .

وعمت الشكوى من الضنك الشديد ، فمنحت الحكومة الموظفين اعانة غلاء . ولكنها حصلت هذه الاعانة من زيادة اجور السكك الحديدية .

ولكن ما لبث هذا الظلام الحالك أن انجاب فجأة باعلان الهدنة ، وتسليم الألمان لدول الحلفاء . وكان ذلك فى الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادى عشر من الشهر الحادى عشر من عام ١٩١٨ .

وقد أرسل ملك بريطانيا إلى سلطان مصر البرقية التالية :

إلى حضر صاحب العظمة سلطان مصر بالقاهرة

« فى هذه الفرصة السعيدة ، التى اعترف آخر اعدائنا فيها بالانهزام ، أوجه لعظمتكم تهانى القلبية وتشكراتى على خالص مساعدتكم .

« فلتثق مصر وأهلها بنيل نصيب كامل فيما سيكون للامبراطورية البريطانية من العظمة والرجاء فى المستقبل » .

ورد عظمة السلطان فؤاد بالبرقية التالية :

« إلى حضرة صاحب الجلالة الملك بلندن

« إن تلغراف جلالتكم الذى تفضلتم بتوجيهه إلى بمناسبة الانتصار النهائى على الأعداء قد قوبل من شعبى ، ومنى ، بعظيم الابتهاج . وأى شهادة يبتهج لها قلبى أعظم من اعتراف جلالتكم بالخدمة التى فرضتها مصر على نفسها ، وقامت بها تلقاء القضية المشتركة .

« وإنى مع ابداء إجلالى العظيم للأعمال الفاخرة التى قامت بها الجيوش البريطانية فى البر والبحر فى هذه الحرب العديمة المثيل أود أن اعرب لجلالتكم عما يقوم بنفسى من الشكران تلقاء التأكيدات الطيبة التى تفضلتم بإبدائها نحو مستقبل مصر » .

● ● ●

يقول سعد باشا زغلول فى مذكراته إنه فى الوقت الذى كان البحث والحديث عما تصنعه مصر فى مؤتمر الصلح ، كان الأمير عمر طوسون يقوم بنفس الحركة.. ولكن الذى أدهشه أن رئيس الحكومة رشدى باشا ، كلمه فى هذا الموضوع وكلم غيره بطريقة أشعرته بأن فى الأمر شيئاً غير عادي . وعلق سعد على أحاديث رشدى معه بقوله إن الأيام ستظهر من أمر هذه الحركة ما كان خافياً ، إذ يبدو أن وراءها سراً خفياً .

ولم يكن هذا السر الذى جهله سعد فى ذلك الوقت ، وجهله الجميع غير شخص السلطان ، وتفكيره ، الذى أحسن كتمانه ، وأحسن تدبيره ، بحيث يحرك الأمور ، ولا يظهر على مسرحها . .

فلا شك أن تاريخ النهضة الاستقلالية المحدثة مدين لرشدى باشا رئيس النظار وقت الهدنة بالكثير . فقد أيد رسميا مطالب أعضاء الجمعية التشريعية ورئيسهم المنتخب سعد باشا ، وقف بكل سلطانه الحكومى فى جانبهم ، واستقال عندما تبين له تعذر تحقيق هذه المطالب . ولكننا نستطيع أن نفهم الأمور فهماً أصح إذا وضعنا رأى السلطان وراء كل حركة وكل سكنة تمت فى هذا الوقت . .

يقول شفيق باشا فى حولياته :

« فاتح رشدى باشا زميله عدلى باشا فى أمر المطالب المصرية ومصيرها ، واتفقا على مخاطبة من يثقان بهم من رجالات الأمة ، فأخذ رشدى باشا يستظهر بهم ، ويحضهم على المطالبة بحقوق البلاد . ويقال إنه كان يستدعيهم إليه بواسطة سكرتيره ، فرداً فرداً ، وباسم غير اسمه حتى لا يلفت نظر السلطة العسكرية إلى اجتماعاته بهم جميعا . ثم يتباحث مع كل منهم على حدة ، فى كيفية هذه المطالبة . وكان أول من خوطب سعد زغلول باشا ثم اخوانه

عبد العزيز فهمى بك وعلى شعراوى بك واحمد لطفى السيد بك.
ولم نتمكن من معرفة تاريخ هـذه المقابلات . فرأى دولته من البعض تردداً خشية غطرسة السلطة العسكرية وبخاصـــة فى ذلك الوقت الذى كانت فيه وطأة الاحكام العرفية قد اشتدت . ولكن تشجيع رشدى باشا ، وحثه الجماعة ، وإبداء استعداده لتضحية كل شىء فى سبيل الذود عنهم، حمل هذا البعض على الثبات ثم على الاقدام » .

وذكر صاحب الحوليات بعد هذا أحاديث الأمير عمر وأن الاختيار وقع على سعد زغلول «لما يعهد فيه من الجرأة والقدرة على المناقشة ولتوفر قوة الاقناع لديه » .

■ ■ ■

وهكذا لم تكن الاحاديث عن مستقبل مصر قاصرة على جهة دون جهة . ولم تكن أعز أمانى الشعب وقادته ، دون القصر . . بل اندفع الجميع فى هذا الطريق وكل يعمل والسلطان يعمل فيه عن طريق حكومته ، باراً بكتاب اعتلائه العرش، وبالوعد الأول الذى قطعه على نفسه .

وفى الوقت الذى كان سعد وعبدالعزيز فهمى وشعراوى يطلبون

مقابلة العميد البريطانى، كتب رشدى باشا وثيقة رسمية إلى عظمة السلطان يقول له فيها :

« إن الحوادث تتوالى سراعا . وستبدأ مفاوضات الصلح ويشرع فى تسوية جميع المسائل التى أثارتها الحرب . ومن أهم الأمور أن تبسط آراء عظمتكم وآراء حكومتكم فى مصير مصر السياسى لحكومة صاحب الجلالة البريطانية مباشرة . ولذا أقترح على عظمتكم أن تعهدوا إلىّ و إلى زميلى عدلى باشا بهذه المهمة .

« وسينوب عنى سرى باشا فى رياسة مجلس الوزراء أثناء غيابى . و ينوب عنى ثروت باشا فى وزارة الداخلية . و ينوب زيور باشا عن عدلى باشا فى وزارة المعارف » .

فوافق السلطان فوراً على هذه الخطة . ولكن السلطات البريطانية عارضت هذا الطلب ، كما عارضت طلب الزعماء الثلاثة ، لأن وقت هذه المباحثات لم يحن بعد . وأن مؤتمر الصلح يشغل السلطات البريطانية عن كل ما عداه .

ولم يسع رشدى باشا إزاء هذا الرفض إلا أن يستقيل فى ٣ ديسمبر سنة ١٩١٨ .

وقبل أن يستقيل رشدى باشا — أبلغ السلطات البريطانية أن وكلاء الجمعية التشريعية يجب أيضا أن ينضموا إلى « وفد »

المفاوضات المصرى . و بذا أعطى لأحاديث وحركات هؤلاء الوكلاء صبغة رسمية أو شبيهة بالرسمية .

وكانت الاستقالة مفاجأة . وظهرت الوحـدة المصرية تامة فى هذه النقطة .ولكن المعتمد البريطانى السير ونجت[1] رجا السلطان فى ألا يقبل الاستقالة حتى تتم مخابراته مع حكومته .

فلما طالت هذه المخابرات دون الوصول إلى نتيجة كرر رشدى استقالته فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩١٨ ، ذاكراً فى كتاب الاستقالة أسبابها — لا الأسباب الصحية المأثورة — وسجل أيضا جهود وكلاء الشعب بقوله :

« طلبت وفود مؤلفة من بعض أنظمتنا النيـابية السفر إلى لندن للدفاع عن قضية مصر . وقد أشرت بأن يؤذن لها بالسفر . فلم تهمل مشـورتى فقط ، بل ورفض سماع آرائى فيما يحتمل أن يكون عليه نظام الحماية . وهكذا ستكون مصر البلد الوحيد الذى لم يسمع صوته فى الوقت الذى يسوى فيه مصيره نهائيا »

وفى ٣٠ ديسمبر قدم رشدى استقالة ثالثة قائلا فيها :

« إنه لايتنازل عن اعتزاله الحكم . و إنه يرجو قبول استقالته حالا خشية أن يؤدى التأخير فى البت فيها إلى تحميله مسئولية عدم

---

(١) لايزال السر ونجت حيا حتى الآن وعمره ٨٣ سنة .

الاهتمام بمصير البلاد ، بصفته رئيس وزارتها،فى الوقت الذى يفصل فيه فى مصيرها نهائيا » .

ورأت الحكومة البريطانية أخيراً أن يسافر مندوبا الحكومة دون وفد الأمة ، فرفض رشدى باشا هذه التفرقة،وأصر على سفر الجميع معا . .

ولو أن رشدى وقف موقفاً غير ملائم من خطة الوفد فى السفر ، ومن صفة وكالته عن الأمة ، لتغير تاريخ هذا الوفدتماما. وإنما اكتسب سعد وأعوانه حقاً أصيلا فى النيابة .باعتراف الحكومة بهم ، فى مفاوضاتها وتبليغاتها . بل أكثر من هذا فى جمع المال ، وجمع التوكيلات . . وموافقة رشدى ، تعنى تماما موافقة السلطان .

بل هناك ماهو أكثر من هذا . فان السلطان ، وقد أعلن آراءه صريحة قاطعة فى رسائل رئيس حكومته وتبليغاتها ، قرر ألا يباشر مهام منصبه ، وترك قصر عابدين ، إلى سراى البستان التى كان يقيم فيها وهو أمير ، وامتنع عن المقابلات ، اللهم إلا مداولاته مع رئيس وزرائه ، أو مع المعتمد البريطانى . ولم يذهب طوال هذه الازمة المستمرة إلى عابدين إلا مرة واحدة .

وقد سبق أن وقع السلطان حسين فى حرج مثل هذا عندما

اختلفت وجهة نظره مع وجهة نظر السلطات البريطانيةفى القاهرة فترك قصر عابدين ، ورحل إلى مزارعه وظل يطوف بها حتى غير السير ما كهون ، واستبدل بالسير ونجت .

وفى هذه الفترة كانت برقيات الوفد وغيره تنهال على زعماء العالم وأعضاء مؤتمر الصلح .

وهكذا استغرقت الحركة السياسية جهود جميع المصريين حاكمين ومحكومين .

ولكن هل اختفت الرغبة فى البحث عن نظام الحكم الداخلى فى مصر ، ووضع دستورها الذى تسير عليه ؟.

لم تختف هذه الرغبة ، بل زادت ، وتأججت فى الصدور إذ لم يغب عن ذهن الجميع أن الدستور يكمل الاستقلال ، وأن الاستقلال يكمل الدستور ، ولما بدأت السلطات البريطانية تصادر الحركة الوطنية،بالاعتقالات المشهورة،ولما أخذت الوطنية المصرية ترد على هذه المصادرة بالاساليب التى استطاعتها فى ذلك الوقت ، مما لاسبيل إلى تفصيله الآن ، كانت الحركة الدستورية تسير فى طريقها فى بطء حيناً ، وفى قوة حيناً آخر .

٢

الدستور المصرى

فى بيانات الوفد المصرى إلى الدول وزعماء العالم ورد ذكر الدستور ، والحياة النيابية كثيراً .

ومن هذا مثلا ، مذكرة موجزة أعدت لعرضها على الدول ، وقد ورد فى بندها الأول حديث الاستقلال وفى بندها الثانى :

« تنتظر مصر أن تكون حكومتها دستورية . . . » .

وقدرت الدوائر الانجليزية ، أن الحركة الوطنية المصرية ، إنما يقوم بها زعماء يستمدون صفتهم الأولى من كونهم أعضاء فى الجمعية التشريعية ، وهى المجلس النيابى الذى أوقفت أعماله الحرب العظمى ، ولم يتح له العمل إلا بضعة أشهر قبل ذلك .

و إذن فلتبحث هذه الدوائر من جانبها موضوع التمثيل النيابى والدستور ، والقانون النظامى كما كان يسمى ، وقد أعد عشرة من المحامين المقيمين فى مصر مشروعاً ، ظهر عدم ملاءمته فورعرضه ،

فأهمل . ثم قدم مستشار الحقانية المستر وليم برونيت مشروع دستور ، رفض بدوره . وقد رد عليه سعد فى خطبة من خطبه كما رد عليه رشدى باشا ، بصفته الرسمية وبدأ هذا الرد بقوله :

« إن الإنسان ليستغرق فى الذهول ، كأنه فى حلم عميق ، ويبهت من الدهشة التى تصدمه عندما يطلع على مشروع الإصلاحات الدستورية الذى قدمه السير وليم برونيت »

وفى نهاية الرد قال رشدى باشا :

« والنظام الدستورى الذى يجب منحه لمصر ينبغى أن يكون فى إجماله على الشكل الآتى .

« ا ـــ مجلس نيابى ومجلس عال (مجلس أعيان) يؤلف كلاهما من المصريين دون سواهم . ويختار أعضاء مجلس النواب بطريق الإنتخاب . وأما أعضاء مجلس الأعيان فيعينهم ولى الأمر لمدة حياتهم من بين الوزراء وكبار موظفى الحكومة السابقين »

« ب ـــ لايصدر قانون إلا بعد تصديق المجلسين عليه، واعتماد السلطان له . أما القوانين التى كان تنفيذها فى الأجانب على عهد الامتيازات يقتضى مصادقة الدول عليها ، فهذه القوانين لايسرى أحدها عليهم إلا بعد قبول بريطانيا العظمى باعتبارها حالة محل

الدول . ويجب ذكر هذا القبول فى ديباجة القانون نفسه قبل ايراد نصوصه واحكامه »

و بعدأن أورد طريقة تنظيم التشريع للأجانب التى رآها ، قال:

« ج — يكون الوزراء مسئولين بطريق التضامن أمام مجلس النواب عن السياسة العامة للحكومة ، ويكون كل منهم مسئولا عن كل عمل من أعمال ادارته يخالف القانون »

وواضح ان تصرفات رشدى باشا ، انما كانت تترجم عن آراء عظمة السلطان . ولا شك فى أن الصورة التى اقترحها رشدى للدستور لاتتناسب مع الأنظمة الدستورية الحديثة ، اوالصورة التى انتهى إليها أمر الدستور المصرى بعد أربع سنين من هذه المحاولات ولكن علينا أن نذكر أن مشروع برونيت الذى ردت عليه هذه المذكرة كان يقضى بتعيين أعضاء أجانب فى المجلس النيابى وأن يسلب المصريين كل حق تمثيلى . فاذا جاء الرد يتوسط بين هذا التطرف الاجنبى ، وبين التطرف المثالى من وجهة النظر المصرية ، فانه يناسب وقته ..

وإذن فقد كانت الحركة الدستورية مستمرة ، وكانت موضوع تجاذب بين الاطراف المختلفة . .

وقد قبلت استقالة رشدى باشا بعد هذه المذكرة بقليل ، وورد

فى مرسوم قبول استقالتها الصادر فى أول مارس سنة ١٩١٩ .

« ان استقالة دولتكم التى رفعتموها إلينا كانت من أشد بواعث الاسف لدينا ، فمع الشكر لدولتكم ولحضرات زملائكم على ما قمتم به من الخدمات الصادقة ، ارجو الاستمرار فى ادارة الأعمال إلى أن يتم تأليف الوزارة الجديدة والله المستعان »

أجل والله المستعان .

وفى ٢١ مارس صدر قرار باعفاء السيرونجت من مهمته، بعد أن ظهر أن اعتقال الزعماء ، وإرهاب الأمة لم يؤد إلى نتيجة بل زاد تأجج الروح الوطنية . ورأت بريطانيا أن تعين فى نفس الوقت المارشال اللنبى مندوبا سامياً فوق العادة ، ومنح السلطة العليا فى جميع الأمور المدنية والعسكرية . .

وهكذا ظهرت على مسرح السياسة المصرية شخصية جديدة لها كل تأثيرها ، وكل خطرها فى سير الحوادث .

وقد أفرج اللنبى عن المعتقلين،وأباح سفر وفد رسمى للمفاوضة، وأرسل الطائرات لتلقى منشوراً بهذا المعنى فى جميع الجهات الهائجة .

وكان ذلك فى ٨ ابريل سنة ١٩١٩ .

وفى ٩ أبريل صدر أمر السلطان لرشدى بتأليف وزارة جديدة ولم تكن قد تألفت وزارة منذ استقالته او استقالاته المشهورة .

ولكن لم يحكم رشدى باشا هذه المرة غير أسبوعين اثنين ثم استقال
وفى ٢١ مايو سنة ١٩١٩ تألفت وزارة محمد سعيد باشا .

■ ■ ■

ونطوى على عجل عام ١٩١٩ وعام ١٩٢٠ ، وعام ١٩٢١ ،
لنقف قليلا عند شهر فبراير سنة ١٩٢٢ ، الذى تمكن فيه المارشال
اللنبي من أن يحصل من حكومته على تصريح من طرف واحد أى
من الجانب البريطانى فقط يلغى فيه الحماية ، ويعلن استقلال مصر
مع التحفظات الأربعة المشهورة . وقد قبل ثروت باشا تأليف
الوزارة على أثر تبليغ هذا التصريح لعظمة السلطان .

وفى المذكرة التفسيرية التى أرفق بها المندوب السامى تصريحه
وردت اشارة إلى النظام النيابى هذا نصها :

« أما إنشاء برلمان يتمتع بحق الإشراف والرقابة على السياسة
والإدارة فى حكومة مسئولة على الطريقة الدستورية فالأمر فيه
يرجع إلى عظمتكم وإلى الشعب المصرى »

ولا جدال فى أن المندوب السامى ، كان قد تشاور مع العناصر
السياسية التى استطاع التعامل معها فى مصر (باستثناء الوفد الذى
نفى زعماؤه) وكان عظمة السلطان على علم بمراحل البحث بين

المنـدوب السامى وحكومته[1] . وكان من مظاهر التوفيق أن عظمة السلطان استطاع أن يكف يد الإنجليز عن التدخـل فى النظام الدستورى لمصر ، وأن يترك ذلك للمصريين وسلطانهـم يقررونه كما يريدون . . .

وفى يقيننا ان هذا المكسب جدير بالتسجيل ، وانه يخفف كثيراً من حدة التحفظات الأربعة التى أرجأها تصريح ٢٨ فبراير إلى مفاوضات مقبلة هى التى عقدت على أساسها معاهدة ١٩٣٦ . .

وعندما أصـدر عظمة السلطان أمره إلى ثروت باشا بتأليف وزارته فى هذه الفترة نص فى خطاب التكليف على ما يأتى :

« ولما كان من أجل رغباتنا أن يكون للبلاد نظام دستورى يحقق التعاون بين الأمة والحكومة ، لذلك يكون أول ما تعنى به الوزارة إعداد مشروع ذلك النظام »

وكان تاريخ هذه الإرادة السلطانية أول مارس سنة ١٩٢٢ واذن فقد بر السلطان بعهـدين من عهـوده الثلاثه ، التى أخذها على نفسه يوم توليه عرش مصر : أولهما العمل على استقلال

---

(١) ورد فى تصريح لثروت باشـا بعد أن ألف الوزارة « إننى ميال من جهتى إلى تثنية المجلس النيابى . وقد اعربت عن هذا الرأى بصراحة فى المفاوضات التى دارت بينى وبين الحكومة البريطانية قبل تأليف وزارتى » .

البلاد ، وثانيهما منحها دستوراً يحقق رقابة الأمة على الحكومة .

وفى كتاب ثروت باشا إلى عظمة السلطان ترديد للتنظيم الدستورى المنتظر : « . . . فان الوزارة — عملا بأوامر عظمتكم — ستأخذ فى الحال فى اصدار مشروع دستورى طبقا لمبادىء القانون العام الحديث.وسيقرر هذا الدستور مبدأ المسئولية الوزارية ، ويكون بذلك للهيئة النيابية حق الاشراف على العمل السياسى المقبل » .

وهكذا — وفى مارس سنة ١٩٢٢ — تجدد مرة أخرى ، وبصورة قوية واضحة ، هذا العمل العظيم الذى كان المغفور له شريف باشا قد وضعه فى أواخر عهد اسماعيل ، والذى تقرر على أثر نضوج التمثيل النيابى — وقد أفضنا فى شرح قوته،والعوامل التى أدت إليه .

وفى ١٥ مارس من هذا العام ظهرت النتائج العملية لاعلان الاستقلال ، فحمل السلطان ، لقب صاحب الجلالة الملك ، وأعلن هذا التعديل للأمة فى البلاغ التالى الموجه من جلالته إلى الشعب المصرى :

« إلى شعبنا الكريم

« لقد منّ الله علينا بأن جعل استقلال البلاد على يدنا . وانا

لنبتهل إلى المولى عز وجل بأخلص الشكر وأجمل الحمد على ذلك .
ونعلن على ملأ العالم أن مصر منذ اليوم دولة متمتعة بالسيادة والاستقلال . ونتخذ لنفسنا لقب صاحب الجلالة ملك مصر . ليكون لبلادنا مايتفق مع استقلالها من مظاهر الشخصية الدولية وأسباب العزة القومية .

« وها نحن نشهد الله ونشهد أمتنا فى هذه الساعة العظيمة ، أننا لن نألو جهداً فى السعى بكل ما أوتينا من قوة وصدق عزم ، لخير بلادنا المحبوبة ، والعمل على إسعاد شعبنا الكريم .

« وانا ندعو المولى القدير أن يجعل هذا اليوم فاتحة عصر سعيد يعيد لمصر ذكرى ماضيها المجيد » .

صدر بسراى عابدين فى ١٦ رجب سنة ١٣٤٠

١٥ مارس سنة ١٩٢٢ فؤاد

وفى هذا الوقت أيضا أنشئت وزارة الخارجية المصرية، وأبلغت الدول بأن تمثيل مصر السياسى سيكون عن طريقها .

وأعلنت وزارة الخارجية البريطانية من جانبها أيضا : « وسوف لاتقوم بريطانيا العظمى ، فى المستقبل ، بحماية المصريين فى البلاد الأجنبية إلا بقدر ماقد ترغبه الحكومة المصرية . وإلى أن يتم لمصر تمثيلها فى المملكة المختصة » .

وعندما شرع ثروت باشا فى تأليف لجنة من علماء القانون ، واعلام السياسة — دعا إليها جميع العناصر التى تؤلف الرأى العام — ورفض الوفد الذى كان يعارضه بقسوة وعناد بالغين تلبية طلبه باشتراك بعض الوفديين مع لجنة الدستور .

وهكذا دخل الدستور وتأليفه فى هذا الكفاح المر بين الوفد ورجاله ، وبين حكومة تصريح فبراير . . وفى مصر تنسينا الخصومة السياسية كل شيء . فقد كان يحسن أن يذكر المصريون جميعا فى ذلك الوقت ، حكومة ومعارضة ، وفدا ، ومن خرج على الوفد .. أن التضحيات التى قدمتها مصر للظفر بدستور كامل ليست قليلة ولا هى بنت زمن قصير . . كان عليهم أن يذكروا أن احتلال سنة ١٨٨٢ إنما ترتب على مطالبة عرابى بالدستور ، وبقدر ما بذل من تضحية ، فى سبيل مطلب من المطالب بقدر ما ينبغى ان يسمو هذا المطلب على الخلافات .

ولكن هذا لم يحدث .

فقد طلب الوفد من ثروت باشا أن يدعو البلاد إلى انتخابات تختار عن طريقها لجنة تأسيس النظام النيابى ، فرفض هذا الطلب ، لأن وضع الدساتير عمل فنى يجب أن يوكل إلى فئة خاصة من ذوى الدراية والمكانة .

وقد تألفت لجنة وضع الدستور من ٣٠ عضواً غير الرئيس ونائبه وكان تأليفها فى ٣ ابريل سنة ١٩٢٢ .

أما الرئيس فكان حسين رشدى باشا .

وأما نائبه فكان احمد حشمت باشا .

و إذا تأملنا و بعد مضى ٢٢ سنة على تأليف هذه اللجنة ، فما كان يمكن أن يختار رجل لرياستها فى مثل نزاهة رشدى وارتفاع مقاصده بعد أن أثبت فى تاريخه الطويل ، وفى حكمه المستمر كل حرص ونزاهة وجدارة عند اشتداد الازمات وضغط التبعات .

أما أعضاء اللجنة فهم :

١ ــ يوسف سابا باشا
٢ ــ أحمد طلعت باشا
٣ ــ محمد توفيق رفعت باشا
٤ ــ عبد الفتاح يحي باشا
٥ ــ السيد عبد الحميد البكرى
٦ ــ الشيخ محمد بخيت
٧ ــ الأنبا يؤنس
٨ ــ قلينى فهمى باشا
٩ ــ إسماعيل أباظة باشا
١٠ ــ محمد أبو حسين باشا
١١ ــ منصور يوسف باشا
١٢ ــ زكريا نامق بك
١٣ ــ ابراهيم الهلباوى بك
١٤ ــ محمد على علوبة بك
١٥ ــ عبد العزيز فهمى بك
١٦ ــ محمود أبو النصر بك
١٧ ــ الشيخ خيرت راضى بك
١٨ ــ حسن عبد الرازق باشا
١٩ ــ عبد القادر الجمال باشا
٢٠ ــ صالح لملوم باشا
٢١ ــ إلياس عوض بك
٢٢ ــ على ماهر بك

٢٣ ــ أصلان قطاوى باشا	٢٧ ــ توفيق دوس بك
٢٤ ــ ابراهيم أبو رحاب باشا	٢٨ ــ عبد الحميد مصطفى بك
٢٥ ــ على المنزلاوى بك	٢٩ ــ حافظ حسن باشا
٢٦ ــ عبد اللطيف المكباتى بك	٣٠ ــ عبد الحميد بدوى بك

وقد قوبل تأليف هذه اللجنة باحتجاج عام، سمحت الحكومة بنشر أنبائه فاستغرق معظم صفحات الصحف فى وقتها . ولكن ثروت باشا لم يأبه للاحتجاجات ، ومضى فى العمل بشجاعة يحمده التاريخ عليها الآن ، و بعد مضى الزمن الكافى لتهدئة الحزازات واطفاء نار الخصومات .

وافتتح أول اجتماع للجنة الدستور فى ١١ ابريل سنة ١٩٢٢ وقال رئيس الوزراء فى خطبة الافتتاح : «انى باسم حكومة جلالة ملك مصر المعظم فؤاد الأول ، أحييكم فى هذا الاجتماع الذى هو أول اجتماع للجنتكم الموقرة . كما أحيي فيكم الغيرة الوطنية والرغبة الصادقة فى خدمة بلادكم العزيزة . إذ قبلتم أن تشاركوا الحكومة فى مهمة وضع مشروع الدستور المملكة المصرية بعد إعلان استقلالها .

وقال عن رفض الوفد الاشتراك فى اللجنة :

« إن الحكومة لم تقتصر فى الدعوة إلى معاونتها على فريق

دون آخر . بل وجهتها إلى من قضت عليهم الظروف بأن يعتبروا أنفسهم خصوما سياسيين لها . غير أنهم ، للأسف ، لم يريدوا أن يصافحوا اليد التى مدت إليهم ، وأبوا أن يتقدموا إلى المشاركة فى هذا العمل الوطنى الخطير . ولعمرى ، إن فى تصرفهم ما يقضى بالعجب . فإن مصير الدستور أن يطبق على الأمة جميعها لا على طائفة دون غيرها »

وقد اسمى الوفد لجنة الثلاثين بلجنة « الأشقياء » ، ولكن اللجنة مع هذا بدأت تعمل ، وكانت مخلصة فى عملها ، لأنها ضمت عناصر من خيرة المصريين وطنية واخلاصا وفقها . .

و برر الأستاذ العقاد فى كتابه عن سعد زغلول امتناع الوفد عن الاشتراك فى وضع الدستور مع هذه اللجنة بقوله :

« دعت الوزارة عضوين أو ثلاثة من الوفد المصرى إلى الاشتراك فى اللجنة ، فلم يجيبوا الدعوة لأن تمثيل الوفد بهذا العدد القليل بين ٣٠ من انصار الوزارة المعادية للوفد ورئيسه، عبث لا يناله منه إلا التبعة وتصحيح مركز الوزارة تصحيحا يقويها ، و يضعفه و يفل سلاحه. ولأنه كان من ناحية أخرى يقترح انتخاب جمعية تأسيسية لوضع الدستور برأى نواب البلاد، لا برأى الوزارة ومن يشايعها » .

ولكن لم يسع الأستاذ العقاد إلا أن يعترف بأن اللجنة كانت تضم « مخلصين » وفوا بالعهد ، وكانوا أمناء عليه . فقد قرر أن الدستور « استفاد كثيراً من حيطة الوزارة وإخلاص المخلصين ، وجاء على الجملة دستوراً لا بأس به فى القواعد والنصوص »

فقد كان الوفد محقا فى ارتيابه لما جابهته به الظروف من صعوبات ومن مظالم حلت به ، ولكن ثروت باشا اثبت أنه كان يعمل لمصر ، ولخيرها ، ولم يتأثر فى وضع الدستور ، ولا فى تأليف لجنته بهذه الخصومات . .

واستمرت وزارة ثروت فى الحكم حتى ٢٩ نوفمبر من هذا العام ، ولكنها انجزت فى هذه المدة أعمالا جساما ، وانتقلت البلاد فى عهدها انتقالا لم تبدِ آثاره الكاملة فى أيامها ، ولكن بعد أن تولت هذه الأيام .

وقد وجدت لجنة الدستور الطريق أمامها شائكا كثير التبعات . فهى تريد أن توسع سلطة الأمة ، وتمد فى سلطانها على أداة الحكم .

وقيل ان الملك فؤادا كان يريد غير ما تريد لجنة الدستور من التوسع فى هذه السلطات .

وذكر ايضـا أن الانجليز عارضوا فى النص على تلقيب الملك بملك مصر والسودان .

أما الاعتراض الثانى فكان صحيحا ، وقد اشـترى صـدور الدستور باطلاق لقب ملك مصر فقط ، بدلا من مصر والسودان على الجالس على العرش .

أما الاعتراض الأول ، فلم تثبت الحوادث صوابه على اطلاقه ، ذلك لأن الملك فؤادا يعد من غير جدال بطل الدستور الحديث ، ولكن هذا لايمنع من أن تكون له بعض آراء ، وأن يقلق من اطلاق السلطة بغير حد لمجلس النواب ، وتقييد السلطة بكل حد للقصر . وستتضح لنا اعتراضات جلالته بعد حين . وسنرى منها كيف أن ملك الدستور ، الذى أحيا فيه ذكر والده العظيم ، لم يكن هو خصم الدستور ، كما راجت الاشاعات تقول ثم تعيد . . هذه الاشاعات التى تجلت بطولته فى احتمالها ، والاعتماد على الوقت فى تبديدها ، وظهور الأمور على حقائقها .

ومهما يكن الأمر فقد انتهت لجنة الدستور من عملها قبيل استقالة ثروت باشا — وكان ذلك فى ٢١ اكتوبر سنة ١٩٢٢ ، وبذا لم تستغرق اللجنة وقتا طويلا .

وقد صـدر بلاغ رسمى وصف فيه انتهاء اللجنة من عملهـا

والخطب التي ألقيت فى هذه المناسبة . وقال ثروت باشا فى خطبته :
« لقد زعموا أن الحكومة اختارت طائفة من الرجعيين لكى تضع دستورا ممسوخا مشوها توحى به إليهم ، لا يفى بحاجة الأمة ولا يحقق لها أملا ، وجاء عملكم هذا أقوى هادم لتلك المفتريات . فانكم لم تألوا جهدا فى الأخذ بأحدث النظم الدستورية لوضع القواعد الأساسية لمشروعكم ، وهو لعمرى جدير بأن يرضى حتى المتطرفين لو أنصفوكم » .

وفى يوم انتهاء لجنة الدستور من عملها تألف حزب الأحرار الدستوريين من الذين خرجوا على سعد ، وكان رئيسه عدلى يكن باشا . .

وتولى نسيم باشا رياسة الوزارة بعد ثروت باشا . وكانت مهمته تهدئة ثائرة الوفديين ، واطلاق سراح المعتقلين . إلا أن رئيس الوزارة الجديدة ، الذى مثل فى السياسة المصرية دور راسبوتين فى حياة روسيا القيصرية ، كثيراً ما لاذ بالصمت ، وباحاطة نفسه بهالة من الطيبة ، ومحبة الأمة . وما كان أمره كذلك ، ولا كانت طبيعته ، ولا تركيبه النفسى مما يؤهلانه للقيام بالدور الذى فرضه الوفد فيه .

تكرر هذا منه مرتين . وخدع الناس فيه مرتين .

أما الاولى ففى سنة ١٩٢٢ . وأما الثانية ففى سنة ١٩٣٥ .

وما أكثر التفاؤل الذى صحب تأليف هذه الوزارة فى أواخر سنة ١٩٢٢ . وما أسخى المنحة التى منحها سعد لرئيسها عندما قال انه يستحق تقدير الوطن ، وما كان مستحقا لها، فقد أخذت بيانات الوفد تترى وفيها مثلا :

« مضى على الوزارة شهران طويلان لم تحقق فيه مطلبا من مطالب الأمة . . . »

وظهر أن سبب تأخير الوزارة فى انفاذبرنامجها،وعلى الأخص اصدار الدستور ، هو المجادلات الطويلة حول النص على السودان فى الدستور . وقد كتب نسيم باشا استقالته فى أكثر من ألف كلمة فكانت من أطول الاستقالات الوزارية التى عرفت .

وتولى الوزارة من بعده يحيى ابراهيم باشا ، وكان ذلك فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٣ .

وقد وجه عبد العزيز فهمى بك إلى رئيس الوزارة الجديدة رسالة مفتوحة قال له فيها :

« عنيت لجنة الدستور عناية تامة بالبحث فى شأن السيادة على البلاد فرأت أنها تمحضت للأمة ، وأن كل سلطة قد أصبحت الأمة مصدرها ، وأن سلطانها أضحى فوق كل سلطان . فجعلت

هذا المبدأ أساسا للدستور ، ودونته بالمادة ٢٣ من مشروعها — لكن الناس يتناقلون أن دولة نسيم باشا غفر الله له قد حذف هذه هذه المادة من مشروع الدستور ، فقلبه بهذا الحذف على عقب »

ثم تابع عبد العزيز بك فهمى عرضه لتعديلات نسيم باشا لمشروع الدستور ، ومنها ما هو خاص بالرتب والنياشين ، ومنها حق الملك فى حل المجلسين — الشيوخ والنواب — ومنها ما هو خاص بالمساواة فى العدد بين المنتخبين والمعينين من أعضاء مجلس الشيوخ ، ومنها حق الملك فى إصدار مراسيم لها قوة القوانين حتى فى أثناء دور انعقاد البرلمان . . الخ .

وقد فضحت هذه المذكرة نوايا نسيم باشا الدستورية ، وأنارت الرأى العام عما كان يجرى فى فترة الصمت التى عاشها نسيم باشا أيام حكمه القليلة ، والتى حسب أنها كانت مداولات من أجل السودان والنص عليه فى صلب الدستور .

وقد كانت هذه الوزارة تصفية للمتاعب الكثيرة التى عانتها البلاد منذ انتهاء الحرب ، لا لجهود خاصة بذلتها هذه الوزارة أو كفاية خارقة تمتع بها رئيسها ، ولكن الأمور نضجت ، وآن وقت قطافها .

افرج عن سعد والمعتقلين .

ورفعت الاحكام العرفية .

وفى ١٩ ابريل سنة ١٩٢٣ صدر الدستور المصرى .

ورفعته الوزارة إلى جلالة الملك فى ديباجة حسنة : « وقد اردتم حفظكم الله أن تتوجوا أعمالكم الجليلة بأثر عظيم يسجله لكم التاريخ ويبقى ذكره خالداً على مر العصور والأجيال » .

وفى نفس اليوم صدر أمر ملكى رقم ٤٣ لسنة ١٩٢٣ بتبليغ دستور الدوله المصرية إلى رياسة مجلس الوزراء وهذا نصه :

«اطلعنا على مشروع الدستور الذى عنيتم بتحضيره ورفعتموه إلينا . وإنا لشاكرون لكم ولزملائكم ما بذلتم من الهمة فى وضعه وما توخيتم فيه من مصلحة الأمة وفائدتها .

« وبما أنه وقع لدينا موقع القبول فقد اقتضت إرادتنا اصدار أمرنا به راجين أن يكون فاتحة خير لتقدم الأمة وارتقائهاوعنوانا دائماً لمجدها وعظمتها .

« وقد جعل الأمر الصادر به من أصلين حفظ أحدهمابديواننا والآخر مرسل إلى دولتكم ليحفظ برياسة مجلس الوزراء .

« والله المعين على ما فيه الخير والسداد » .

فؤاد

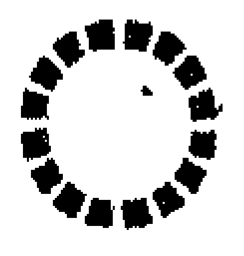
وقد وضعت للدستور مقدمة انيقة الصياغة صادرة من ملك مصر ورد فيها :

« بما أننا مازلنا منذ تبوأنا عرش اجدادنا وأخذنا على أنفسنا أن نحتفظ بالأمانة التى عهد الله تعالى بها إلينا نتطلب الخير دائما لأمتنا بكل ما فى وسعنا ، ونتوخى أن نسلك بها السبيل التى نعلم أنها تفضى إلى سعادتها وارتقائها وتمتعها بما تتمتع به الأمم الحرة المتمدينة .

« ولما كان ذلك لا يتم على الوجه الصحيح إلا إذا كان لها نظام دستورى كأحدث الأنظمة الدستورية فى العالم وأرقاها تعيش فى ظله عيشاً سعيداً مرضياً ، وتتمكن به من السير فى طريق الحياة الحرة المطلقة ، ويكفل لها الاشتراك العملى فى إدارة شئون البلاد والاشراف على وضع قوانينها ، ومراقبة تنفيذها ، ويترك فى نفسها شعور الراحة والطمأنينة على حاضرها ومستقبلها مع الأحتفاظ بروحها القوية والابقاء على صفاتها ومميزاتها التى هى تراثها التاريخى العظيم .

« وبما أن تحقيق ذلك كان دائما من أجل رغباتنا ، ومن أعظم ماتتجه إليه عزائمنا حرصا على النهوض بشعبنا إلى المنزلة العليا التى يؤهله لها ذكاؤه واستعداده ، وتتفق مع عظمته التاريخية القديمة ، وتسمح له بتبوأ المكان اللائق به بين شعوب العالم المتمدين وأممه . . أمرنا بما هو آت . . . »

فهذه المقدمة التى تشبه قصيدة من اروع الشعر الحماسى ، أو لحنا من أقوى الحان الموسيقا ، تصور حقيقة إحساس الملك فؤاد بطل الدستور فى مصر ، وتترجم عن آماله الكبار التى علقها على إصداره . فهى عنده — حقاً وصدقاً — محور النهضة ، والنقطة التي يتحول عندها تاريخ الأمة من الهبوط إلى الصعود والارتقاء .



— ٣ —

فى موكب الدستور

وسارت مصر من ذلك الوقت فى موكب الدستور ، ولكنها لم تسر على طريق سوى ، ولم تنعم بخيره على النحو الذى رسمته مبادئه العالية المستمدة من تقاليد أرقى الشعوب وأعرقها . . . ذلك لأن مصر كانت تعانى أزمة شديدة الخطورة ، وكان هذا النبت الكريم — وهو الدستور — يجابه أعاصير لا يثبت لها عوده الغض . . .

فقد رفض الوفد دستور لجنة الثلاثين ، ولكنه بعد أن تبين أنه صيغ على مثال بعيد عن النقد ، قبل أن يدخل الانتخابات التى ترتبت عليه . وما لبث هذا الدستور أن أضاف إلى سعد زعيم الأمة ، رياسة الحكومة .

وكان ذلك فى ٢٨ يناير سنة ١٩٢٤ .

وسعد الذى نفى مرتين ، وجرب حماسة الأمة فى محبته التى

وصلت إلى حد الجنون ، أراد ان يسق الأمة العطشى من هذا الكوثر الذى تدفق فجأة بين يديه . . يسقيها — لا بقدر معلوم — وبالجرعات الذى تتسع لها معدتها وقد اضمرها طول الظمأ ، ولكن بغير حساب . فعب الشعب منه ، وتحول ريه فجأة إلى عوارض من الألم المفاجىء .

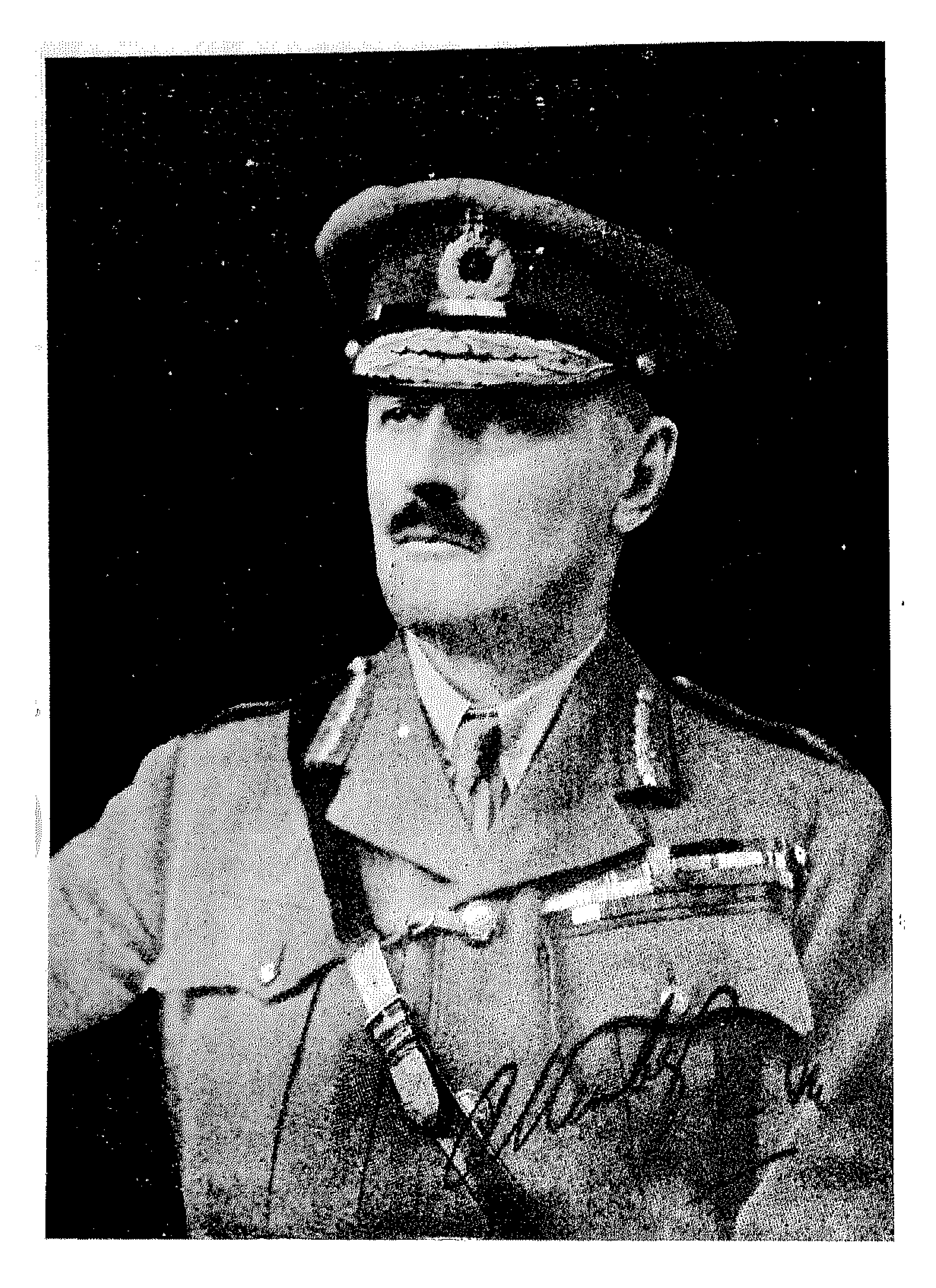
ولو ان الأمور أخذت بالرفق واللين . . ولو أن سعدا راعى القصد فى قسم المظاهر من الحياة الدستورية الجديدة ، اذن لجنبها العواصف التى تهب كل حين وحين .

وقد نصح سعد من أصدقاء ذوى بصر ودراية ، بأن يحفظ مقام الزعامة الوطنية من أن يحشر حشرا فى كرسى الحكم ، ويرفع إلى هذا المقام اعوانه ، والصف الذى يليه من رجاله . وان يبق هو رقيبا على كل شىء ، حارسا لهذا الميراث الذى تسلمته الأمة بعد جهاد وإجهاد شديدين . . لو ان سعدا نهج هذا النهج ، اذن لاستطاع الحكم الدستورى الأول أن ينجو من كثير من عوارض السوء التى احاطت به ، واذن لاستطاع هو بمراقبته من مرصد القيادة العليا — لا القيادة المباشرة — أن يرشد ويشير . . اذن لاستطاع الا يشغل وقته بالكثير من الجزئيات وتوافه الامور التى تصاحب دائما ارباب المناصب . .

لو انه نهج هذا النهج ، اذن لزادت صلاته بالقصر توثقا ، واذن لاستطاع أن يضم نفوذ القصر إلى حكم الشعب فى رباط واحد ، ولاسيما أن كل البوادر دلت على شدة حرص جلالة الملك على الدستور وعلى أن تسير البلاد إلى آخر الشوط فى تطبيق هذا النظام الذى تمناه ، والذى حقق فى انفاذه رغبته ورغبة ابيه اسماعيل الكبير .

كتب سعد بيانا وزاريا مطولا ، عندما اسند إليه جلالة الملك منصب الرياسة ، كان من خير البيانات التاريخية التى أعدت لمثل هذه المناسبة قال فيه .

« ولقد لبثت الأمة زمنا طويلا وهى تنظر إلى الحكومة نظر الطير للصائد لا الجيش للقائد ، وترى فيه خصما قديرا يدبر الكيد لها ، لا وكيلا أمينا يسعى لخيرها . وتولد من هذا الشعور سوء تفاهم أثر تأثيرا سيئا فى إدارة البلاد وعاق كثيرا من تقدمها . فكان على الوزارة الجديدة أن تعمل على استبدال سوء هذا الظن بحسن الثقة فى الحكومة ، وعلى إقناع الكافة بأنها ليست إلا قسما من الأمة تخصص لقيادتها والدفاع عنها ، وتدبير شئونها بحسب ما يقتضيه صالحها العام ... كما يلزم أن تبث الروح الدستورية فى جميع المصالح ، وتعود الكل على احترام الدستور والخضوع



اللورد اللنبي

لأحكامه . وذلك إنما يكون بالقدوة الحسنة ، وعدم السماح لأى كان بالاستخفاف بها والإخلال بما تقتضيه . »

● ● ●

قلنا إن جلالة الملك كان شديد الحرص على رعاية هـذا النبت الجديد ، حتى يقوى عوده ، ويغلظ ساقه — وهو نبت الدستور والحياة النيابية — وكان جـلالته من جانبه متمسكا بالحكومة الدستورية الأولى ، حريصا على أن تبقى فى دست الحكم ، مستعدا دائما لتلبية طلباتها حتى فيما لا يتفق ورغباته الشخصية .

فـكان من رأى جلالة الملك أن يكون للقصر الرأى فى تعيين خمسى الشيوخ فى البرلمان . ولـكن سعدا أبى إلا أن يكون هذا حق الوزارة ..

وكان حجة جلالته أن الحـكمة من هذا التعيين هى تحقيق نوع من السياسة الإصلاحيـــة المستقرة عن طريق الشيوخ المعينين ، واختيار الـكفاءات الحقيقية التى يخطئها عادة الانتخاب لأنها لا تملك الوسـيلة إلى قلوب الجماهير . وكان جـلالته يقول دائما انه لا يصطفى لنفسه من المصريين فريقـا دون فريق ، ولا يستطيع أحد أن يحصى عليـه مرة واحدة أنه آثر أحد أفراد

أسرته أو أصهاره . فالأسرة محددة التزاماتها بحكم القواعد والقانون لا تتعداها . وكان شديد الحرص على ألا يتمتع أصهاره بغير الحق العادي الذي تبيحه النظم ، حتى انه عندما اختير أحدهم مرة محافظا للاسكندرية ، رفض جلالته بدل التمثيل الذي يعطى عادة في هذه المناسبة اكتفاء بترقيته من مدير الجيزة إلى منصب محافظ .

وإذن فقد كان جلالته على ثقة من أنه يصدق الوزارة النصح، عندما يرشح لها بعض من يرى فيهم الكفاية والاقتدار ، وقد قبل سعد مرشحي الملك ، وإن كان قد أخذ من جلالته الحق بأن يكون هذا الترشيح من جانب الوزارة ..

وطلب سعد أن يكون من اختصاص مجلس الوزراء النظر في مسائل الأزهر فقبل جلالته .

وطلب أن يكون من اختصاصه أيضا النظر في الرتب والنياشين ومناصب القصر فقبل جلالته .

وطلب أن يكون من اختصاصه فوق هذا ، التعيين في مناصب السلك السياسي فقبل جلالته .

بل أكثر من هذا وعد بادخال هذا كله في صلب الدستور ..

وليس بعد هذا كله استعداد من جانب القصر لأن يمكن

للحكم الدستورى فى البلاد من أن يسير كما يريد ..

ولكن كل هذا الاستعداد للبذل والإعطاء من جانب القصر فى سبيل الدستور وحكمه ، لم ينج وزارة سعد من سوء الطالع الذى صاحبها عند ما أطلق بعض المصريين الرصاص على السر ليستاك سردار الجيش وحاكم السودان .

فقد أطاح هذا الاغتيال بالوزارة الدستورية الأولى ، وكاد يصيب البلاد بنتائج وبيلة .

ومنذ أطلقت هذه الرصاصات ، ونسبت إلى عدم اقتدار الوفد على ضبط الشعور الوطنى ، ومحق النزوات الخاطئة أوالشريرة لبعض الأفراد ، والحكم الدستورى عن طريق الانتخاب المباشر لا يسير سيره الطبيعى ... فقد ظهرت فى الأفق فكرة حكم الاكفاءوذوى المهارة ، وظهرت فكرة إجبار الأمة على التسليم لهذه الكفايات برغبتها أو بغير رغبتها .

ومن هنا بدأت على سطح الحياة السياسية الحرب بين الفكرتين : فكرة الحكم الرشيد ، وفكرة الحكم الشعبي ، وشابه النزاع بينهما حرب العصابات التى لا تستند إلى قواعد الحرب بقدر ما تستند إلى المفاجأة ..

وكان سلاح الوفد قدرته على إثارة الجماهير ، والدعوة فى

أوساطها بكل ما هو حق ، وبكل ما هو غير حق .

حدث فى أحد الانتخابات أن سقط سعد فى انتخابات ثلاثينيه فكان هذا إيذانا بأن فى الإمكان التأثير على اجراءات الانتخابات بما يخرجها عن طبيعتها .

وحدث مرة أن نجح طباخ عدلى باشا فى انتخابات ثلاثينيه وسقط عدلى باشا نفسه ، فكان هذا أيضا إيذانا بأن فى الإمكان الرد على التأثير الحكومى ، بتأثير شعبي لا يقل عنه خطرا .

وكان جلالة الملك يتألم من هـذه الحالة كثيرا ، و يستعين بالزمن و بالصبر لإصلاحها .

فما كان خادم عدلى أقدر على نفع الأمة من عدلى نفسه . ولو أن حرب الدعاية والتهييج راعت الاعتـدال إذن لظفرت فى كل موطن وكل مقام ، ولما كسبت خصوما أقوياء الحجة بمثل هـذه الأمثلة .

وعندما انتهى سعد إلى وجوب صيانة الدستور بتهدئة عوامل الخصومة، وضم الجهود بعضها إلى بعض، بدلا من أن يوجه بعضها ضد بعض نعمت البلاد بحالة من الاستقرار لا مثيل لهـا . وحكم عدلى وثروت متعاونين مع سعد فى البرلمان على أحسن مثال يرتجى وتحققت الصورة التى كان يراد للزعامة الوطنيـة أن تسلـكها عام

١٩٢٤ عندما طبق حكم الدستور لأول مرة .

ولكن ظهر خطر جديد أزعج القصر ، وهو كثرة تدخل النواب فى الشئون التنفيذية ، و إلحاحهم فى إرضاء ناخبيهم بالتوسط فى بعض التعيينات ، أو تنفيذ بعض المصالح الصغيرة . وما كان يمكن أن يقف سيل هذا التدخل . ولم يوجد رئيس الوزارة أو الوزير الذى يستقبل النائب أو الشيخ للبحث فى المسائل العامة ، أو تحقيق الرقابة الفعلية لسلطة التشريع على سلطة التنفيذ ، وتقتصر المقابلة على هذا الموضوع وحده ...

وهنا ظهرت فجوة بل فجوات فى حياتنا الدستورية . وهنا بدأ بعض الشك يساور النفوس فى قيمة هذه الأداة نفسها التى أريد للبلاد أن تحكم بها ، فما هكذا يطبق الدستور ، وما هكذا يتصرف حراس الدستور ..

وزاد الأمر شدة ، أو قل كان بدأ هذه الشدة ومنتهاها ، أن الدستور لم يتضمن نصا يمنع النائب من اقتراح القوانين المالية . أو زيادة الاعتمادات التى تطلبها الوزارة ..

فكانت الميزانية تقدم للجان البرلمانات المتعاقبة ، فلا تختزل إلا فى بعض النواحى ، ولكنها تزاد فى نواح أخرى بزيادة اعتمادات بعض الوظائف ، أو المشاريع التافهة ...

ولو أن النواب منعوا — كما هو الحال مع نواب انجلترا — من زيادة الاعتمادات ، بل اقتصر حقهم على الاقرار ، أو التخفيض لسدت ثغرة واسعة فى طريقة الرقابة التشريعية على السلطة التنفيذية . ولما أصبحت اعتمادات الميزانية موضوع مساومات بين الوزراء والبرلمان .

واقتنع جلالة الملك بوجوب النص فى الدستور على هذا الأمر .. ولكنه ترك الظروف تعمل عملها عسى أن تصل إلى هذه النتيجة .

●●●

يقول الأستاذ العقاد فى كتابه عن سعد :

« الحق ان رجلين قويين عنيدين كفؤاد وسعد ، ما كان من الميسور أن يعيشا فى عصر واحد ، ويجتمعا فى ميدان واحد دون أن ينشب بينهما النزاع على نحو من الأنحاء . ولو جاء فؤاد إلى الملك بعد توطيد الدستور لكان من الجائز أن يحتمل الزعماء الأقوياء والوزراء المقتدرين العاملين معه فى نطاق الحكومة النيابية . ولكنه جاء قبل استقرار الدستور ، بل قبل إنشائه ، فكان من العسير عليه النزول عن سلطانه ، وهو من هو من دراية وكفاءة واعتدادا بالنفس ، واستعلاء على من لا يساوونه

— فى رأيه — فى حق القدرة أو حق السلطان » .

وصواب ما ذهب إليه العقاد من أن مسرح الحياة السياسية فى مصر شهد رجلين من أظهر رجالها على مر التاريخ كله . أحدهما صعد بالتاج و بالعرش إلى مكان المنعة بعد أن كان مزعزع الأركان ، وإلى مكان الشهرة وحسن الأحدوثة بعد أن كادت أعاصير الاحداث تلقى عليه ستارا كثيفا من الإهمال . والثانى استطاع أن يصعد إلى قمة العواطف الوطنية التى حبست طويلا ثم تفجرت مرة واحدة ، فكان ربان السفينة ، وكان فى الصدر يحتمل صدمات الموج ، ويثبت لها فى صلابة المؤمن المعتد بنفسه و بالحق الذى أكسبته إياه أمته .

ولكن ليس صوابا ما ذهب إليه الكاتب من أن فؤادا الأول لم يكن راغبا فى العمل مع سعد ، ولا قادرا على أن يسير السفينة وفيها هذا الراكب الشهير الذى كان من حقه أن يبدى الرأى دائما فى طريقة تسيير السفينة ..

وكل الذى حدث أن سعدا لم يفهم الملك على حقيقته فى أيام الثورة والانفعال الوطنى العام . ولكن عندما أذنت الظروف له بأن يزداد اتصالا بصاحب التاج ، كان يزداد ثقة من قدرته العجيبة ، ونفوذ رأيه ، وجدارته بأن يكون المصرى الأول فى

تاريخ هذه البلاد .. كان سعد يخرج من حضرة الملك فؤاد في كل مرة زاره فيها وهو فرح متهلل واثق بأنه كان في حضرة رجل عظيم قادر . فلما أراد سعد أن يحمى الدستور ويصونه ، من خطة القهر التي سامتها إياه أيام زيور ، عاد بالتفكير الوطني إلى ما كان يجب أن يكون عليه ، وأن يستمر عليه، في فجر الحركة الوطنية الحديثة . فتعاون مع رجال كبار يثق بهم الملك ويعتد كثيرا برأيهم وبقدرتهم ...

يقول السردار اقبال في كتابه عن الملك فؤاد :

« قاسى زغلول كثيرا من مقتل السرلى ستاك على الرغم من أنه هو نفسه لم يكن رجل عنف . كما أن هذا الحادث كان قد أثار نفسه كثيرا ، وبدأ بعد ذلك يبحث عن الأساس الذى يستطيع السير عليه بدلا من العمل المرتجل . وبالاختصار كان قد تعلم كيف يكون معتدلا في أفكاره وأحاديثه ، وبدأ يرتبط مع بعض العناصر المعتدلة بروابط جديدة .

« .... أصبح سعد يرى نفسه والد المصريين جميعا » .

ومما يروى في صدد العلاقات بين الملك فؤاد وبين زعيم الوفد قول سعد ذات مرة : « لقد طوقني الملك ! وإنه لقدير » .

وخرج مرة من إحدى المقابلات ، ثم أخرج ساعته من

جيبه ، وقال للمحيطين به فرحا مغتبطا : « لقد طال الحديث خمسين دقيقة » .

ولو أن العمر طال بسعد فترة أخرى ، بعد أن عرف من خلال الملك فؤاد ما عرف ، لما حدثت المتاعب الدستورية فى مصر على النحو الذى أعقب وفاته . ولكانت البلاد استفادت فائدة جليلة من توثق العلاقة ، وزيادة التفاهم بين القصر وحزب الأغلبية ..

وبالاختصار ، قرر سعد ألا يكون شخصه عقبة فى سير الأمور ، فإذا كان قبوله رياسة الوزارة يؤدى إلى إبحار البارجة البريطانية رزليوت H.M.S. Resolute على عجل إلى ميناء الاسكندرية ، قرر أن يتخلى عن هذه الرياسة ، وأن يعترف بنظام الوزارات القومية ...

وفى هذه الفترة ، التى ساد فيها هدوء تام جميع نواحى السياسة المصرية ، فترة الائتلاف تحت إشراف سعد ، فى هذه الفترة التى كان سعد وعدلى وثروت يقفون صفا واحدا ، تقدمت قضية مصر إلى الأمام عشر سنوات . ولو أن سعدا عاش عاما واحدا لظفرت البلاد بمعاهدة فى مفاوضات ثروت قريبة من المعاهدة التى ظفرت بها بعد عشر سنين فى ظروف من الاتحاد القومى شابهت اتحاد هذه الفترة .

— ٤ —

أزمة الدستور وحلها

مضى سعد عن الحياة ، فلما تولى الزعامة من بعده مصطفى النحاس باشا لم يبدأ من النقطة التى انتهى عندها سعد . وهى الحرص على أن يشترى حكم الدستور بالتضحية بمسائل صغيرة ليست فى الصميم ، والميل إلى الاعتدال فى معالجة الأمور ، بل أعاد للوفد كل عنفوانه فى الصلابة والحدة ، وضرورة أخذ الأمور مواجهة ، ومن غير أى احتياط ..

ولم يكن الملك فؤاد مستعدا للعودة مرة أخرى إلى سياسة سنوات ماضية ، وإلى تجارب جديدة ، ورياضة للنفس وللأمور التى لا يحتملها .

فكان احتكاك مستمر بين حق القصر وحق الأغلبية .

وكانت الشكوى دائمة من غلبة روح المنفعة على الحياة

النيابية باستمرار هذه المساومات السنوية على الميزانية بين الحكومة وبين اللجان النيابية ...

واستمر هذا النزاع ثلاث سنوات بعد وفاة سعد ، رأى الملك على أثره أن يجرب تجربة جديدة لتعديل الدستور تعديلا يلائم خطته التى ترمى إلى الفصل الحقيقى بين سلطة التشريع وسلطة التنفيذ .

ومن هنا كانت محاولة إصدار دستور ١٩٣٠ ، وحكم اسماعيل صدقى باشا ..

كان الملك فؤاد قد جمع من خلال تجاربه فى ثمانى سنوات — وهى الفترة بين وضع الدستور والعمل على تعديله — عدة آراء رأى ضرورة تطبيقها .

وأهم هذه الآراء ضرورة الاحتفاظ بالمواد الـ ٢٣ الأولى من الدستور سليمة لا تمس بأى تعديل ، وهى المواد التى تنظم «حقوق الإنسان» فى الدستور المصرى ، فتحفظ له حرياته جميعا حسب تنظيم القوانين ، وتنص على أن الأمة مصدر كل السلطات ..

بقيت هذه المواد كما هى — بهذا أمر الملك ، وعلى هذا الأساس شرع فى تعديل الدستور . وضمن رأى الملك الذى أشرنا إليه أكثر من مرة ، وهو الاقتداء بالدستور الانجليزى فى إعطاء

النواب حق إقرار أبواب الميزانيــة أو تخفيضها ، وسلبهم حق الزيادة .

وكان صدقى باشا رئيس الوزارة إذ ذاك ، قد أرسل مشروع دستوره ، فأحاله جـلالة الملك إلى نسيم باشا رئيس ديوانه ليضع مذكرة بما يراه فى التعديلات التى أدخلت عليه ..

وقد تجلت نفسية هذا الرجل، الذى يكره الشعب، فى مذكرته التى رفعها للملك ، إذ رأى بدوره ضرورة إدخال تعديلات كثيرة تضيق من حق الأمة ، ولـكن كان أخطر تعـديل أشار به هو تحريف المواد التى تجعل الوزارة مسئولة أمام البرلمان ، بأن يجعل لإمضاء الملك دون وزرائه قوة القانون . وبذا هدمت المادة ٤٨ التى تنص على أن الملك يتولى سلطته بواسطة وزرائه .

ولما كانت هــذه المقترحات من الخطورة بمكان ، فقد أحال جلالته مذكرة نسيم باشا ، على ناظر خاصته الابراشى باشا لكى يبدى رأيه فيها . وكلا الرجلين من أعلام القانون ، وأولهما أقدم فى المناصب القضائية ..

ويظهر أن الملك كان يميل إلى الأخذ بوجهة نظر نسيم باشا ، إلا أن ناظر الخاصة ، ورئيس الوزراء الذى هدد بالاستقالة، أصرا على ضرورة العدول عن تعديل نسيم باشا . وحدث فى هذه الفترة

صراع قوى بين رغبة نسيم باشا فى هدم قاعدة من أهم قواعد الدستور و بين رجلين من أكبر أركان ذلك العهد ، وانتهت الأمور بأن سلم الملك بأن التعديل المقترح خطر ، لأنه كان يسلب الدستور كل معنى، وهو ليس فى مصلحة البلاد. والتفكير فيه يساوى تماما التفكير فى إلغاء الدستور كلية ...

وجربت تجربة دستور ١٩٣٠ ، ولكن بعد أربع سنوات من استمرارها ظهر أن البلاد لم تكن تطيق الحكم بهذا الأسلوب ، وصمد الوفد للضغط الذى حل به صمودا تاما . فرأى جلالة الملك أن يكرر التجربة التى تمت مع نسيم باشا فى أواخر عام ١٩٢٢ ، فدعاه إلى الحكم عسى أن يوفق كما كاد يوفق فى المرة الأولى إلى إرضاء الأغلبية ، وإلى تنسيق مطالبها ومطالب القصر ...

وغرق نسيم باشا مرة أخرى فى صمته المأثور ، وظل ينطوى على كثير من النزعات والآراء فى صدد الحياة الدستورية . وتوجس الوفد من هذا الصمت خيفة . وأعقب التهليل الذى قوبل به نسيم باشا — على أنه وزير انتقال — امتعاض شديد .. وتبين أن هناك محاولات ترمى إلى العبث بالحياة الدستورية فى صميمها . وتجلى عداء نسيم باشا الحقيقى لهذا اللون من الحكم

الديمقراطى ، عندما راح يخدع الناس باحياء الفكرة القديمة التى نادى بهـا الوفد فى أثناء وضع الدستور ، وهى انتخاب جمعيـة وطنية لوضع الدستور ...

وظهر للملك فؤاد فجأة أن نسيم باشا يدبر بوحى معين مشروعا خطيرا ، فما كان من جلالته إلا أن ضرب ضربة هى أقوى ما عرف من مناوراته السياسية ...

فقد كتب إلى رئيس وزرائه يرد على مشروع الجمعية الوطنية ومشروع الدستور الذى أراد أن يختزل به الدستور المختزل — وهو دستور ١٩٣٠ — بألا داعى لكل هذا ، وأن من الخير العودة إلى دستور ١٩٢٣ .

وذهل نسيم باشا ، فقد حسب أن الملك فؤادا سيجارى رغباته فى العبث بصميم الحياة الدستورية . ولكنه لم يفق من ذهوله ، إلا بعد أن سلم الملك لصدقى باشا — صاحب دستور سنة ١٩٣٠ — نص الخطاب الملكى لنسيم باشا بإعادة دستور ١٩٢٣ — فنشره فى جريدته ، ثم نقلتـه جريدة الأهرام . وبذا ظهر ما كان مستورا من المناورات ، وبذا ظهر أيضا وبطريقـة قاطعة أن فؤادا الأول لم يكن عدو الدستور كما تصور البعض ، ولكنه كان شديد الحرص على هذا الدستور .

وقد وصف الساسة الانجليز هذا الخطاب بأنه « ضربة معلم » وكذلك كان . وحقا ما قالوا .

وهكذا استحال الملك إلى البطل الأول للدستور الشعبي . وننشر فيما يلى نص هذه الوثيقة الهامة التى أرسلت من القصر فى ٢٠ – ٤ – ١٩٣٥ :

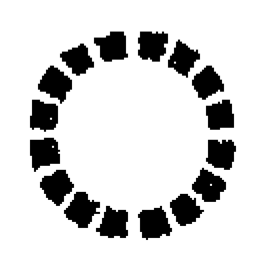
« فى الكتاب الذى رفعتموه إلينا يوم الخميس الماضى استعرضتم الأعمال التى قامت بها الحكومة والتى نتمنى جميعاً أن تؤدى فى النهاية الى خير وسعادة الوطن ، وبينتم أنكم شرعتم فى تناول المسائل التى كانت لا تزال فى دور الانتظار والتعليق بنفس الروح التى سارت على الأعمال التى بدا ذكرها ، مشعرين بتخوفكم من قيام عقبات قد تعترض نجاحكم فيما أخذتموه على عاتقكم أمامنا فى سبيل مصلحة البلاد – ولما لم يكن لدينا مطمع أسمى من خدمة بلادنا العزيزة فقد منحناكم ولا نزال نمنحكم تعضيدنا فى كل ما تتحقق به مصلحة وطننا المقدس ، تلك المصلحة التى تعلو فى أنظارنا على أى اعتبار . فان عليكم إذن أن تعتمدوا على تعضيدنا إياكم فى القيام بالمهمة السامية التى دعوناكم للاضطلاع بها والتى تناولتم شرحها فى كتابكم – وإن أعز أمانينا كما تعلمون – هو أن تحيا البلاد الحياة الدستورية التى ترضاها – سواء باعادة دستور ١٩٢٣ معدلا على النحو الذى يرتئيه حسب المقتضيات نواب الأمة طبقاً لأحكام المواد ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،

من ذلك الدستور أو بوضع دستور تصدق عليه جمعية تمثيلية وطنية ، وإنا مع ذلك نفضل الطريقة الأولى إلا إذا تبين رأى البلاد جلياً فى جانب الطريقة الثانية واتضح أن فيها صالحها .

وإنا لنبتهل إلى العلى الأعلى أن يسدد خطانا فى سبيل الفلاح وهو مولانا وهو نعم النصير ؟

صدر فى ١٧ محرم سنة ١٣٥٤
٢٠ ابريل سنة ١٩٣٥

« فؤاد »



شمس الضحى

١

أبو النهضة

إذا كان قد قدر للملك فؤاد أن يواجه خلال سنوات حكمه ألوانا من المتاعب المرهقة ، وإذا كان قد اذيع عنه إنه لايهتم كثيراً بآراء الجماهير وعواطفهم ، فما من شك فى أنه كان يحمل لبلاده حباً عميقاً ، ويحفظ لشعبه إخلاصاً اكيداً .

والمصريون جميعاً معترفون فى غير تردد أنه كان ملكا عظيما ، أثر بمجهوده الشخصى فى معظم الأعمال العامة الجليلة التى تمت فى مصر ، وأن مصر قد خطت فى عهده وبفضل مثابرته خطوات واسعة فى طريق التقدم .

كان الملك فؤاد بعيد النظر ، واسع الخبرة موفور التجارب . يستطيع أن يحكم حكما صائبا على ما قد ينتهى إليه مشروع من المشروعات ، مهما جل خطره ، من الفشل أو النجاح . وسيبقى

اسمه مخلداً مرتبطاً بكثير من الأعمال العظيمة التى شهدتها مصر وتطلع إليها العالم أجمع .

■ ويمكننا أن نذكر على سبيل المثال أن نفقات وزارة الأشغال العمومية قدرت فى عام ١٩٢٨ - ١٩٢٩ بما كاد يبلغ الثمانية ملايين جنيها . وهو مبلغ ضخم بالقياس إلى بلد كمصر . فقد تم تنفيذ مشروعات ذات اهمية كبرى للبلاد، وهناك مشروعات كثيرة أخرى لاتزال موضع الدرس والعناية .

على أن أهم حادث فى تلك السنة هو ما قام به الملك فؤاد بوضعه الحجر الأساسى فى قناطر نجع حمادى . وقد نوه وزير الأشغال فى كثير من الاحترام فى خطابه الذى ألقاه فى حضرة المليك عند الاحتفال بوضع هذا الحجر ، بالنصائح الغالية الحكيمة التى زود بها جلالته رجال حكومته فيما يتصل بالمشروعات العامة .

■ وليس من ريب فى أن قناطر نجع حمادى ، التى قدر لها أن تتم فى عهد الملك فؤاد كلفت مصر ملايين الجنيهات، ولكنها مهدت لرى مساحات واسعة من الأرض بلغ مجموعها ٦٠٠,٠٠٠ فدان ، طالما قاست مرارة الحرمان خلال الثلاثين سنة الأخيرة نتيجة للفيضانات المنخفضة . على أن هذا المشروع قد شمل إلى جانب تلك القناطر أعمالا أخرى لها أكبر الصلة بتحسين وسائل الرى

كالجسور وترعتين حملت الأولى اسم الملك فؤاد ، وحملت الثانية اسم الملك فاروق .

■ ولولا ما كان يبذله الملك فؤاد من نصح ، ولولا إصراره على أن يضمن للبلاد على الدوام زيادة في دخلها على مصروفاتها ، لما تمت أكثر المشروعات العظيمة التى فازت بها مصر فى عهد جلالته ولم يكن فؤاد ليتردد فى الانفاق عن سخاء ، ولكنه كان مالياً حاذقاً يعرف أين ومتى ينفق المال . وقد اتيح له أن يرى بلاده تكون لنفسها احتياطيا يبلغ عشرات الملايين من الجنيهات . وقد ظل حتى آخر حياته يعمل جاهداً فى سبيل زيادة دخل الحكومة ، قدر ما سمح الموقف السياسى ، وذلك بالاقتصاد فى النفقات فى بعض النواحى ، وتنمية موارد البلاد وثروتها .

■ و بوحى من الملك فؤاد أعيد النظر فى أمر التعريفة الجمركية ، وادخلت ألوان جديدة من الضرائب ، وانشئت خطوط جديدة للسكك الحديدية ، وخفضت نفقات صيانة السكك الحديدية مما ادى إلى تخفيض أجور النقل . وكذلك انشئت الطرقات فى الجهات التى كان النقل فيها بالعربات عسيراً أو مستحيلا . وفصل الموظفون الزائدون عن حاجة العمل فى مصالح الحكومة التى ظلت اعواما طويلة كأنها ملجأ موفور الخيرات .

■ كذلك أشار الملك فؤاد باصلاح السوق المالية بحيث تتفق وصالح التجارة ، ونصح بتعيين لجنة مهمتها بحث نظام البورصة واصلاحه .

■ وعنى جلالته كثيراً بشئون التجارة وما يتصل بها ، فأصدر في عام ١٩٢٧ مرسوما رفع به نصيب المصريين في إدارة الشركات وفي اسهمها . كما اشترط أن يضم مجلس إدارة أى شركة من هذه الشركات مديرين مصريين ، وأن يكون ربع موظفى الشركة الذين ليسوا من طائفة العمال ، من المصريين . كما حتم في حالة اصدار اسهم أو سندات أن يخصص ربعها لعرضه في مصر ، وفرض أن يكتتب في اربعة اخماس هذا الربع مصريون .

■ أما رعاية جلالته للجامعة فكانت ظاهرة ملموسة ، فقد اصدر في اكتوبر سنة ١٩٢٧ قانونا لاعادة تنظيم الجامعة التى كانت مهمتها تشمل كل ما يتصل بالثقافة العليا في كليات الآداب والعلوم والطب والحقوق. على أن مهمة هذه الجامعة بوجه عام إنما تنحصر في تشجيع البحث والعمل على نشر الآداب والعلوم . والجامعة من الوجهة القانونية مؤسسة مستقلة لها كامل الحق في إدارة أملاكها وتوزيع الاعانة التى تقدمها لها الحكومة سنويا بما يتفق وحاجاتها .

■ وقد قدر لجهود الملك الرائعة التى تتصل بالجامعة أن تبدو فى حفل رسمى اغتبط له جلالته وسرت له مصر ، حين تفضل وفى معيتـه أمراء الأسرة المالكة والوزراء السابقون ورجال الدين والوجهاء من المصريين والأجانب ، ووضع الحجر الأساسى فى المبنى الجديد للجامعة فى الجيزة حيث تقوم أمامها حدائق الأورمان .

■ وقد نوه مدير الجامعة فى الخطاب الذى ألقاه فى هذه الحفلة، بالجهود العظيمة المتواصلة التى بذلها جلالة الملك للجامعة التى تدين بوجودها لرعايته أميرا وعطفه ملكا .

■ وقد اهدى جلالة الملك مكتبة المغفور له البرنس ابراهيم حلمى الذى مات فى نيس، ولما كان جلالته اخا للأمير الفقيد ووارثا له ، فقد تنازل عن نصيبه فى هذه المكتبة الغنية الرائعة للجامعة ، وحذا حذوه فى هذا التنازل بقية الورثة . وأضافت هذه المكتبة إلى ذخيرة الجامعة عشرين ألف مجلد تبحث الكثرة الغالية منها فيما يتصل بمصر و بلاد الشرق .

■ ولم يكن اهتمام الملك فؤاد بالمدرسة الفاروقية البحرية باقل من اهتمامه بالمسائل الأخرى ، فقد تقدم الكثيرون بهبات مجموعها عشرون ألف جنيه لتمدها بحاجات هذا المعهد الضرورية على أثر اعلان جلالته لرغبته فى تنفيذ مشروعها . وقدم أميران من الأسرة

المالكة « يختين » خاصين ، واشترك أصحاب السفن فى الأسكندرية فى تقديم سفينة شراعية . ولما حضر إلى مصر اللورد انشكاب Lord Inchcape رئيس شركة Peninsular Orient Steam Navigation طلب إليه جلالة الملك أن يزور المدرسة وأن يبدى رأيه فيها . فقبل اللورد هذه الدعوة السامية ، ثم قدم تقريراً بين فيه أنها لا تقل بأى حال عن السفينة المدرسية « ورشستر » التى قضى أعضاء البعثة البحرية المصرية مدة تمرينهم على ظهرها فى المياه البريطانية .

■ وكان لجلالة الملك فؤاد الفضل الأول فى تقدم قوة الطيران المصرية ، فقد عهد بالاشراف على هذه القوة إلى القائمقام تايت بك Tait Bey والبكباشى س. ن. ويبستر S. N. Webster الذى فاز بسباق كأس شنيدر عام ١٩٢٧ . وقد ضمت القوة عدداً من الضباط البريطانيين ، كما تلقى الطيارون المصريون دروسهم فى مدرسة الطيران البريطانية فى ابى صوير .

■ وسرعان ما حققت قوة الطيران المصرية غرض الملك فؤاد من إنشائها ، و بلغ الطيارون المصريون من البراعة حداً يستثير الاعجاب . وقد عاونت هذه القوة معاونة جدية فى مقاومة تهريب المخدرات والقضاء على عصابات التهريب فى الصحراء . كذلك عاونت

قوة الطيران مصلحة الآثار وقدمت لها خدمات جليلة لما كانت تلتقطه لها من الصور الرائعة. فكان فى هذه الجهود ما أثار اعجاب الملك فؤاد الذى كان حبه عميقاً لآثار بلاده .

■ و بفضل تشجيع الملك فؤاد المستمر بدأت أعمال التنقيب فى منطقة الأهرام فى الجيزة ، تلك المنطقة التى ظن العالم إنه لم يبق بها من آثار الفراعنة مايمكن الكشف عنه .

■ ولكن الدكتور سليم بك حسن ، الذى أصبح اسمه كعالم أثرى يرن فى أجواء العالم ، قد وفق فى فبراير سنة ١٩٣٢ إلى اكتشاف آثار قديمة رائعة فى منطقة الأهرام تلتها عدة اكتشافات ذات أهمية كبرى فى تاريخ قدماء المصريين، تضارع فى روعتها ومميزاتها تلك المكتشفات التى عثر عليها حديثاً فى وادى الملوك .

■ و إلى الملك فؤاد يرجع الفضل فى وضع نظام للتنقيب عن الآثار فى مصر ، فلم يعد من الممكن أن يبدأ أى باحث بأعمال التنقيب قبل أن يحصل على الترخيص اللازم من السلطات المسئولة .

■ واهتم الملك أيضاً بالناحية الجغرافية للبلاد ، فنالت الجمعية الجغرافية من تشجيعه وعنايته ما دفع بها فى الصف الأول بين الجمعيات العلمية فى البلاد . فلما مات الملك فؤاد كان بين مجموعاتها العلمية

الزاخرة مؤلف المسيودى لارونسير M. De Laronciere فى أجزائه الثلاثة ، التى وضعها « عن كشف افريقيا فى القرون الوسطى » وهو ذلك المؤلف الرائع الذى يستمد روعته من ناحيتين : أناقة الطبع وجماله الفنى من ناحية ، وتلك الخرائط القديمة التى تضمنتها من ناحية أخرى ، وهى الخرائط التى لم يعرفها أحد من قبل أو التى لم يسبق طبعها أو نشرها . ومن الأعمال الجليلة التى قامت بها الجمعية تلك الابحاث القيمة التى وضعت عن الصحراء الشرقية وعن الترع القديمة ، وعن مينائى السويس والاسكندرية .

■ وإلى جانب هذه الجهود النبيلة ، انشئت الجمعية تنفيذاً لرغبة الملك فؤاد الشخصية ، متحفا اتنوجرافيا Egyptian Ethnography وقد بنى هذا المتحف على فكرة جمع أمثلة لجميع الأدوات التى تستخدم فى مصر ، والتى توشك أن تختفى مع تعاقب الأيام ، نتيجة استعمال ادوات أخرى مشابهة لها ، تستوردها مصر من أوربا ، لتفوقها فى المتانة ولانخفاض أثمانها .

■ وقد كانت صلة الملك فؤاد بالجمعية وثيقة إلى أبعد مدى ، فهى لم تكن علاقة ضرورة الجأته إليها التقاليد الاجتماعية ، وإنما كان مبعثها هوى خالص يحمله لها فى نفسه ، وكثيراً ما كان يتردد على إدارة الجمعية وكثيرا ما كان يساهم بنفسه فى أعمالها .

وقد قال فى إحدى زياراته لها :

« فى اللحظة التى يغذى الشعب فيها شعور الاحترام لاجداده ، وروح التقديس لاعمال أبطاله ، يدرك سر مستقبله لأنه يكون فى هذه اللحظة بعينها قد بلغ ذروة المدنية » .

ثم قال فى مناسبة أخرى :

« ستكون مفاخر ماضينا وتراثنا الخالد خير عون لنا فى بعث وطننا من جديد ، وفى التقدم به نحو الكمال الانسانى » .

■ وكان فؤاد الأول معنيا أشد العناية باستثارة الاحترام لذكريات الأجداد والتقديس لعظمة الماضى . حتى لقد بلغ من شدة اهتمامه بهذا الموضوع أن اوفد إلى أوربا من قاموا بالبحث بدقة وعناية فى دور المحفوظات فى العواصم الكبرى عن معلومات تتصل بعصر محمد علي . وطبعت مؤلفات كثيرة عن هذا العهد تحت رعايته ولعل بين أهم تلك المؤلفات رسائل الجنرالين بليارد Belliard و بوير Boyer[1] . .

---

(١) طبعت تحت عنوان :

A French Millitary Mission to Mohamed Ali; The Embassy of Elfi Bey in London in 1853; The First Frigate of Mohamed Ali, and The State Coach of Ibrahim Bey in 1803.

■ وكذلك اودع الملك فؤاد مبلغ ٧٠٠٫٠٠٠ ألف جنيه فى بنك فرنسا بباريس لينفق منها فى وضع تاريخ كامل عن مصر منذ أقدم الزمان حتى الوقت الحاضر. وهى المهمة التى عهد بها إلى المسيو جبريل هانوتو M. Gabriel Hanotaux يعاونه جماعه من كبار المؤرخين. وليس من شك فى أن مثل هذا المؤلف العظيم وملخصه سينشران من خلال سطورهما على تاريخ البشرية نوزاً ساطعاً.

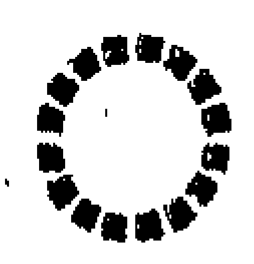
■ ولا بد أن نذكر فى هذا المقام «الجمعية المصرية للحشرات» وهى وليدة جهود الملك فؤاد والتى افتتح دارها الجديدة رسميا فى فبراير سنة ١٩٢٨. وقد تبرع لها جلالته بمبلغ كبير من جيبه الخاص تنفق منه فى شئون مكتبتها ومعملها.

■ ولما كان الملك فؤاد يدرك كل الادراك ما أدت إليه الحركة التعاونية فى بريطانيا العظمى والهند، فقد رغب فى أن تنتشر هذه الحركة بين فلاحى مصر؛ ورأى فى هذا التعاون وسيلة لتخليصهم من ثقل الاعباء التى تحملها الكثرة الغالبة منهم فوق اكتافها، وسبيلا لانقاذهم من براثن المرابين.

فصدر فى سنه ١٩٢٣ قانون بنظم جمعيات التعاون الزراعية، غير إنه اتضح أن هذا التشريع فى حاجة إلى التنقيح والاصلاح فأشار جلالة الملك بتكوين لجنة فى وزارة الزراعة لبحث هذا

الموضوع. وهى اللجنه التى مهدت لتنسيق جمعيات التعاون المصرية التى باتت تسير وفق القانون الصادر فى سنه ١٩٢٨ . وقداصبحت هذه الجمعيات بعدتنظيمها تعمل على تحسين الحالة المادية للمشتركين فيما يتصل بالمحاصيل بيعا وشراء ، وعقد السلفيات والتأمين وإصلاح الأراضى والرى والصرف وما إلى ذلك من كل الشئون التى تهم الفلاحين .

ورغبة فى تشجيع الروح التعاونية ونشرها بين طبقات الفلاحين ، ضمن القانون لجمعيات التعاون امتيازات واسعة تسهل مهمتها وتخفف عليها اعباء وظيفتها ، وتيسر على الفلاحين سبل الاتصال بها والاستفادة منها .



٣

الدين والدنيا

كان الملك فؤاد يدرك إدراكا تاما مكانه من العالم الإسلامى . فكان لذلك يقاوم بكل ما فيه من قوة ما قد يبدو فى مصر مشابها لنظام تركيا الفتاة «The Young Turks» ، ونتيجة لذلك ظل مدة طويلة يراقب بحذر جمعيـة من الجمعيات التى ظهرت فى بلاده فى السنوات التالية للحرب والتى أطلق عليها إسم « جمعية الشبان المسلمين » وكان إسناد رياسة هـذه الجمعية إلى الدكتور عبد الحميدسعيد أحد الوطنيين المتطرفين ما أثار الشك والريبة فى نفس الملك فؤاد نحو أغراض هذه الجمعية . فلما ظهرت أعمالها واضحة للعيان لم يضن عليها بالمساعدة والتعضيد .

وفى أكثر من مناسبة ، أظهر الملك فؤاد ما يدل على إهتمامه بمسألة « الخلافة » التى رأى أنها قد تؤول اليه فى يوم من الأيام . ففى نوفمبر سنة ١٩٢٢ أقر المجلس الوطنى الكبير فى الجمهورية

التركية الجديدة قانونا يلغى به السلطنة ، وفى نفس الوقت نصب عبد المجيد ابن السلطان المخلوع خليفة دون أن تكون له السلطة الزمنية ؛ وعلى الرغم من أن القانون الإسلامى يشترط فى الخليفة أن يجمع بين السلطتين الروحية والزمنية ، فقد قبل عبد المجيد مركز الخليفة فى صورته الجديدة المختصرة . على أن المنصب فى هذه الصورة الجديدة لم يخرج عن أن يكون أداة اريد لها أن تحجب عن الشعوب الإسلامية حقيقة الموقف . إذ لم تكد تنقضى على هذا الوضع سنة واحدة حتى قرر المجلس الوطنى الكبير فى أغلبية مطلقة ، الغاء الخلافة العثمانية فى صورة نهائية .

فتطلع العالم الإسلامى للموقف فى شبه ذهول . هذا الخليفة قد حرم أولا من السلطة الزمنية ، ثم لم تلبث الأمور قليلا على هذا الوضع حتى محيت الخلافة محوا ، فلم يعد للمسلمين فى أنحاء العالم زعيم روحى يتوجهون إليه ، فساد بينهم القلق .

وكان طبيعيا أن تبذل الجهود بعد ذلك لاختيار خليفة جديد . وكان طبيعيا أيضا أن يتطلع الملك فؤاد إلى هذا المركز وأن يرى انه أجدر الناس به ، وهو الذى كان يرعى المعاهد والمنشئات الدينية المصرية فى صدق وإخلاص . لكن حدث فى سنة ١٩٢٤ أن زار الملك حسين شريف مكة ، بلاد شرق الأردن فعرضت عليه

الخلافة فقبلها . ولكن المعروف أنه لم يحمل هذا اللقب إلا فترة قصيرة فلم تكد تنقضى ستة أشهر حتى هزمه الملك ابن السعود فضاعت منه مكة ثم مات فى عمان فى سنة ١٩٣١ .

فلما اختفى الحسين من مكة ، فكر علماء الأزهر فى عقد مؤتمر إسلامى عام لبحث مسألة الخلافة والفصل فيها برأى . وتأجل المؤتمر عدة مرات حتى اذا كان عام ١٩٢٦ عقد فى القاهرة مؤتمر ولكن الحضور لم يكونوا بحيث يمثلون العالم الإسلامى تمثيلا صحيحا ، فلم يستطيع المؤتمر إلا أن يقرر أن مسألة اختيار الخليفة الإسلامى لابد أن تنظر فى اجتماع عام يشهده ممثلون عن جميع البلاد الإسلامية .

وكان من المحتمل أن يقع الاختيار على الملك فؤاد ليكون خليفة للمسلمين ، وكان من المحتمل أن يرضى المسلمون فى مختلف أنحاء العالم عن هذا الاختيار ، وهذا الأزهر بنفوذه الواسع ينشر مكانة مصر بين الشعوب الإسلامية .

ففى الأزهر حوالى ١٢٠٠٠ طالب [زادوا الثلث الآن] ، كثيرون منهم قد وفدوا إليه من ابعد الأقطار الإسلامية ، ومن الجائز أن يقال إن هؤلاء الطلاب يمثلون العالم الإسلامى . غير أنه اتفق أنه بينما كان المؤتمر منعقدا ، بدت من الملك فؤاد رغبة حارة فى إدخال بعض الإصلاحات على نظام الأزهر ، فبدأ فى تنفيذها فوراً

● ● ●

لم تكن المناداة بالملك حسين خليفة فى عام ١٩٢٤ بالعمل الموفق ، وقد دلت على أنه ليس من الممكن أن يعرض موضوع الخلافة دون أن يثير النزاع وسط العالم الاسلامى ، بينما كان شعور المسلمين المنتشرين فى جميع بقاع العالم منذ سنة ١٩٢٤ يميل أشد الميل إلى الابتعاد عن كل ما من شأنه أن يثير خلافا أو يبعث على الخصومة .

وقد كان الكثير من أمثال « شوكت على » فى الهند يرغبون رغبة صادقة فى تنصيب خليفة للمسلمين ، غير أن الملك فؤادا رأى من الخير ألا يوقظ الأمر من سباته .

وفى سنة ١٩٣١ نشرت مجلة « نور الاسلام » التى تصدرها الجامعة الأزهرية بيانا عارضت فيه ما بدا من الرغبة فى عرض مسألة الخلافة على المؤتمر الذى كان مزمعا عقده إذ ذاك فى القدس واعلنت أن الوقت لم يحن بعد لبحث مثل هذه المسألة .

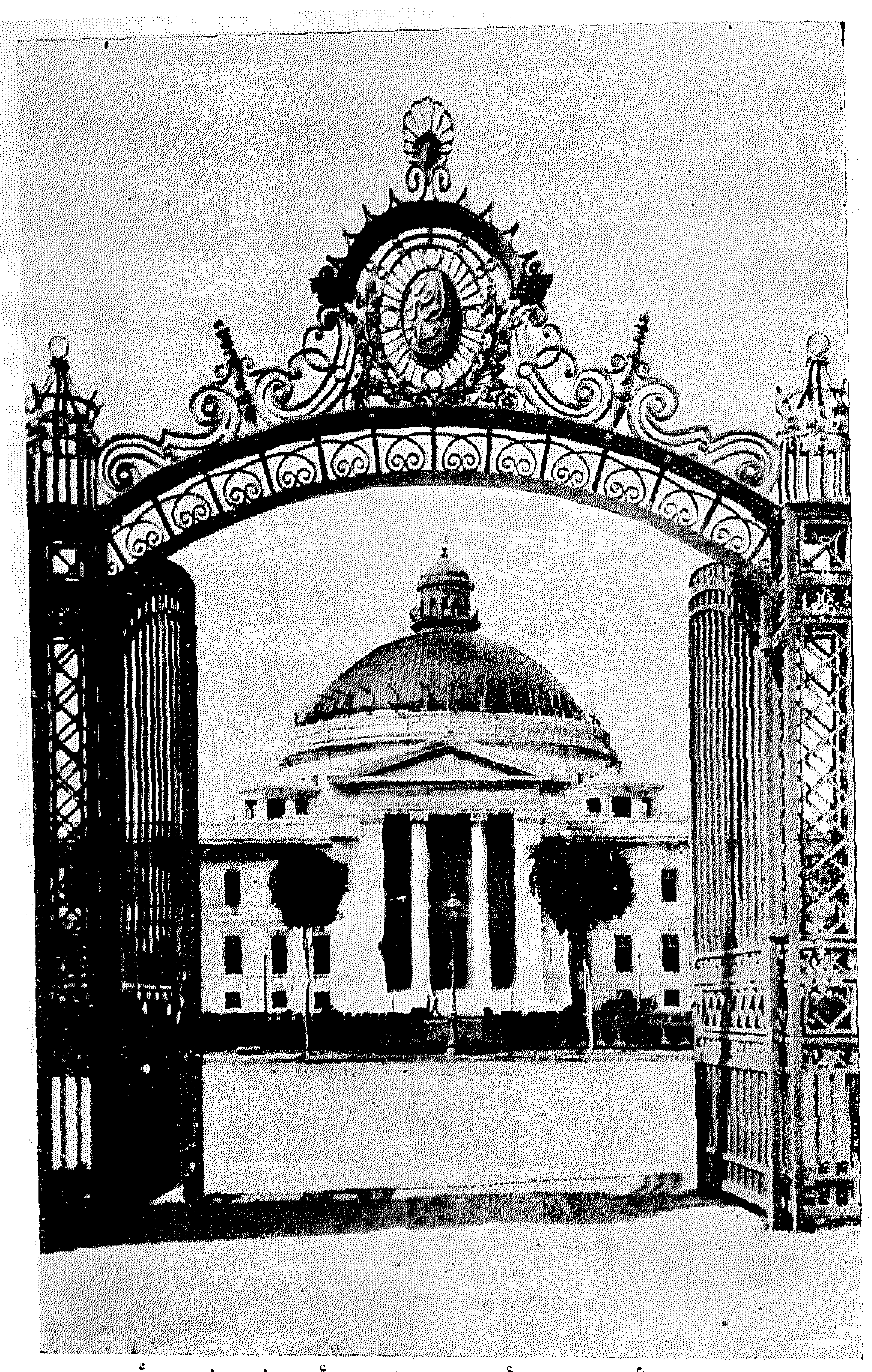
على أن هذا لا يعنى أن مسألة الخلافة قد ماتت ، وكان الملك يعرف هذا ، ويعرف كذلك أن حق مصر قوى من الوجهة الجغرافية ، وأن حق ملكها ثابت قوى .

وأدرك فؤاد فى ذلك الحين ميـل البلاد العربية الإسلامية إلى توثيق الروابط التى تجمعها وتوطيد الصلات التى تربطها . وقد شهد فؤاد هذا الإتجاه الجديد خلال سنوات حكمه ورأى الروابط تجمع بين شعوب مصر وفلسطين والعراق وسوريا وشرق الأردن . وكان جلالته يدرك ماينطوى عليه هذا الاتحاد الروحى من المزايا ، وأيقن أن قيام خليفة بارع يجمع بين يديه السلطتين الزمنية والروحية ، لا بد أن ينعش الإسلام ويخلصه من هذه المنازعات التى دفعته اليها « تركيا الفتاة » فى هدمها للخلافة .

ومن المحتمل أن تؤدى حوادث فلسطين إلى تقوية الشعور بضرورة التوحيد بين البلاد العربية .

وربما كان من المحتمل لوقدر للملك فؤاد أن يمتد به العمر ، أن تتحقق أمنيته ، وأن ينصب قائدا روحيا للعالم الإسلامى .

وهو كابن لإسماعيل ، كان يجمع كل المؤهلات التى تهيؤه عن جدارة لمثـل هـذا المنصب ، فهو لا تعوزه صفات الحـذق أو البراعة السياسية وهى الصفات التى يتطلبها منصب الزعامة الدينية . وقد كان فى تعاقب الأيام ماقوى مركزه وثبت اقدامه ، ذلك ان روح الإسلام فى مصر قوية والشعور الدينى فيها ظاهر ملموس .



الجامعة . . مأثرة فؤاد الأول من الحجر الأول الى الحجر الأخير .

٣

البدء والختام وما بينهما

كانت الطريقة التي ولى بها الخديويون الثلاثة — اسماعيل وتوفيق وعباس — العرش هى أن يصدر من سلطان تركيا فرمان يحمله مندوب سام من قبل الخليفة ، ويحتفل بالتولية احتفالات رسمية وشعبية كبيرة . ولكن منذ اشتعلت نيران الحرب العظمى الماضية ، واقتضت ظروفها اعلان الحماية على مصر ، وزوال السيادة التركية الاسمية عن البلدان ، لم تصبح تركيا هى صاحبة الحق فى فرمان التولية ، و إنما آلت حقوقها — ومنها هـذا الحق — إلى الدولة الحامية ، حتى تزول ظروف الحرب وظروف الحماية .

وكان هذا الموقف مريرا على المصريين ، وعلى سلطانهم الذى تولى الحكم فى ظل الحرب وظروفها .

وصف شفيق باشا صاحب الحوليات ، تولية السلطان حسين بقوله :

« إذا رجعنا إلى الظرف الذى اكتنف ارتقاء السلطان حسين العرش ، نجد أن علاقاته إذ ذاك كانت متينة مع دولة محمد سعيد باشا ، وكان عظمته فى ابان مفاوضة الانجليز له فى هذا الأمر يرسل إليه يستشيره فيما يجب عليه تلقاء ما دعوه إليه ، فنصح إليه سعيد باشا بألا يعتلى العرش بارادة صادرة من وزارة الخارجية البريطانية لما يعتور توليته العرش على هذا النحو من انفضاض القلوب من حوله، وعدم إيمان الشعب بسلطنته ، وأشار على عظمته بأن يوعز إلى المديرين والمحافظين بجمع العلماء والأمراء والذوات والعمد والأعيان فى القاهرة فى جمعية عامة تنتخبه سلطانا على البلاد وتبايعه على الطاعة والاذعان لأمره حتى يعزز مركزه الجديد بهذه المبايعة العامة .

« وربما كان صدور الأمر للفراشين باقامة ذلك السرادق الكبير الذى اقيم فى فناء قصر عابدين لهذا الغرض . ولكن النية انصرفت عن تنفيذ النصيحة فى النهاية ، لأن النظار قالوا إذ ذاك: مادام التعيين يكون من قبل الأمة ، فيكون لها الحق يوما ما فى العزل . وهم يبغون الابتعاد عن ادخال الأمة فى مثل ذلك الأمر فى هذه الظروف ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فكان ما كان من تولية عظمته » .

ووصفت الصحف حفلة التولية بقولها : إن السلطان حسينا خرج من قصر نجله الأمير كمال الدين حسين [مقر وزارة الخارجية الآن] في عربة فخمة تجرها الخيول المطهمة ، تتقدم المركبة كوكبة كبيرة من الخيالة البريطانية ، فأخرى من الخيالة المصرية وخلف المركبة كوكبة أخرى من الخيالة البريطانية . وسار الموكب على هذا النظام حتى وصل قصر عابدين ، وبعد وصول عظمته بخمس دقائق وصل المستر ميلن شيتهام القائم بأعمال الوكالة البريطانية ، مستصحبا موظفي الوكالة في مركبتين فاخرتين يحف به عدد عظيم من خيالة الجيش البريطاني . ثم وصل على أثره اللفتننت جنرال ج . ج ماكسويل قائد القوات البريطانية في مركبة فاخرة كذلك مستصحبا أميرالا بحريا ، ومحفوفا بالحرس البريطاني فتشرفوا كلهم بمقابلة عظمة السلطان مهنئين عظمته بارتقاء كرسي السلطنة . وكان الجيش الانكليزي قد اصطف على جانبي ميدان عابدين تتقدمه موسيقاه ، وفي الساعة التاسعة صباحا خرج الحرس المصري الفخري من ثكنة عابدين تعزف بلحن السير المصري العسكري ، وفي وسط الحرس علمه . فوقف هذا الحرس قبالة الباب البحري ، وراء صف من الجيش الانكليزي .

ثم بدأت المقابلات الرسمية . . .

ولما انتقل السلطان حسين إلى رحمة ربه ، وتولى اخوه السلطان فؤاد العرش مكانه ، تقرر نفس النظام ، لأن الحرب كانت لا تزال دائرة الرحى ، والحماية ما تزال مفروضة على البلاد .

وبديهى أن مصر كانت منصرفة عن هذا كله بالقلب والروح . كانت فى وجوم ، ترقب الأفق الذى تتقلب فيه الغيوم السود ، وتحجب وجه الشمس ، وكل شعاع من ضياء .

وما أن جلس السلطان الجديد على العرش ، حتى ابتدأ يعمل ، فى حزم ، وصمت ، ومثابرة ، واستنارة ، لم تعرف من قبله عن أحد من المالكين .

انتظر حتى استجاب الله سؤاله ، ورزقه بمولوده الأول ، وكان ميلاد سموه فى وقت بلغ فيه انشغال المصريين بامورهم السياسية حداً عظيما ، فقد كانت لجنة ملنر تباشر عملها ، وتريد أن تضع نظاما لمستقبل مصر .

وقد اذيع أمر من السلطان هذا نصه :

« حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء

« المنة لله وحده

« بما أنه فى الساعة العاشرة والنصف من مساء أمس الأربعاء المبارك ٢١ جمادى الأول ١٣٣٨ الموافق ١١ فبراير سنة ١٩٢٠ ،

قد من الله علينـا بولد ذكر أسميناه « فاروق » فقد استصوب لدينا إصدار أمرنا هذا لدولتكم إحاطة لعلم هيئة حكومتنا بهذا النبأ السعيد لاثباته بسجل خاص ، يحفظ برياسة مجلس وزرائنا ، وتعميم نشره فى جميع أرجاء القطر ، مع تبليغه لمن يرى تبليغه إليه بصفة رسمية ، واجراء مايقتضى اجراؤه بهذه المناسبة المباركة وإنما اسأل الله القدير المنان أن يجعل هـذا الميلاد مقرونا باليمن والاسعاد للبلاد والعباد من فضله وكرمه » .

(فؤاد)

ولم يكن أحد يدرى فى ذلك الوقت أن هـذا الميلاد السعيد ، إنما كان حجر الزاوية فى بناء صرح الاستقلال المصرى، إذ اتكأ عليه عظمة السلطان ، واصدر بعد عامين،وبعد أن تحولت السلطنة إلى مملكة ، قانون وراثة عرش مصر ، بتاريخ ١٣ ابريل سنة ١٩٢٢ وقد استهل بالديباجة الآتية :

« بما أن مصلحة البيت المالك ، ومصلحة البلاد تقتضيان وضع نظام لتوارث عرش المملكة المصرية أمرنا بما هو آت :

« المادة الأولى — الملك ومايتعلق به من سلطان ومزايا وراثى فى اسرة جدنا الجليل محمد على .

« المادة الثانية — تنتقل ولاية الملك من صاحب العرش إلى

أكبر أبنائه ثم إلى أكبر أبناء ذلك الابن الأكبر وهكذا طبقة بعد طبقة » .

وفصل المرسوم بعد هذا الحالات المختلفة للتوارث، وورد فيه:

« فولاية الملك من بعدنا لولدنا المحبوب الأمير فاروق »

● ● ●

فلما أذن الله بأن ينتقل إلى رضوانه الملك فؤاد، كانت الهيئة صاحبة السلطان فى تولية الملك الجديد ، هى مجلس الوزراء المصرى ، والبرلمان المصرى .

وقد جرت حفلات التولية ومهرجاناتها وسط فرحة من الشعب هزته من الأعماق، واعادت إليه روحه التى فقدها طويلا ، وكانت أعظم وأكبر مظهر من مظاهر الاستقلال .

ولما أراد رئيس الوزراء إذ ذاك على ماهر باشا أن يرجع إلى السوابق، لم يجد مايستند إليه . لأن التاريخ تغير، فقد زالت سيادة تركيا، وزالت حماية بريطانيا، واصبحت مصر مستقلة الاستقلال الذى يمكنها من وضع القواعد والنظم التى تناسب انفرادها فى تنفيذ قوانين توارث العرش ، وتصبح بعد هذا تقليدا يتبع ، وإذا أريد تعديله فنحو الكمال الذى يناسب ماستصير إليه مصر فى مقبل القرون من عظمة واقبال .

وإذن فقد تسلم فؤاد الأول أمانة العرش فى أسوأ ظرف مر على مصر ، فاما سلمه لخليفته ، كان قد وطد أركانه ، وقوى بنيانه وجعله عرش مصر ، بإرادة مصر . . وهذا ولا شك انتقال عظيم فى تاريخ البلاد ، يرجع الفضل فيه إلى همة هـذا العاهل المخلص العامل ، وإلى النهضة الوطنية والعلمية والاقتصادية ، التى جعلت مصر جديرة بمكان الحرية والاستقلال بين مجموعة الشعوب .

وهذه مصر اليوم تعيش فى حرب جديدة ، لا تقل هولا عن الحرب الماضية بل تزيد ، فلم تفرض عليها حماية ، ولم يضار مركزها الدولى ، وستخرج مصر من محنة الحرب المحيطة ، واستقلالها أشد توطدا ، وتاجها أكثر لمعانا وتوهجا . . فاذا قارنا بين ظروفنا فى هذه الأيام وما فيها من سعة ، و بين ظروف الحرب الماضية وما كان فيها من ضيق ، فينبغى أن نذكر دائما أن صاحب الفضل الأول والأكبر ، إنما كان لشخص صمم سفينة الاستقلال ، وكان فى نفس الوقت ربانها ، ومن عجب إنه جمع بين الكفاءتين ، ونجح فى العملين . . ولم يكن هذا الشخص إلا الملك العظيم القدير فؤاد الأول . .

● ● ●

ويحسن وصفحات الكتاب الأخيرة تقترب على عجل أن نرسم

صورة عامة للشخصية ، بعد أن عشنا فى ظل الظروف التى انجبتها طوال الصفحات الماضية .

كان الملك فؤاد قوى الخلق ، محافظا فى رأيه ، يكره الطفرة ويحب البناء على امتن أســاس . وقد تجنب هــذه العجلة التى صاحبت خلق ابيه ، فاودت بالكثير من مشاريع الاصلاح العظيمة التى بدأ فيها .

وكان فى اسرته حريصا على التقاليد الاســلامية . ان صورة صاحبة الجلالة الملكة لم تنشر فى مصر إلا لمناســبة رحلة استشفاء قامت بها فى أوربا . . ولم يكن أحد من المصريين يعرف أن اسم والدة الملك فؤاد هو « فريال » حتى سمى جلالة الملك فاروق أول كريماته بهذا الاسم . وذلك على الرغم من أن الملك فؤادا كان شديد الحب لأمه ، كثير الاعجاب بشجاعتها ، ويرجع إليها الفضل فى خلق الشجاعة والاستقامة اللذين تحلى بهما .

وكان جلالته لا يشرب الخمر مطلقا . وقد دارت بينه وبين ناظر خاصته سعادة زكى الإبراشى باشا المحادثة التالية : قال زكى باشا لمناسبة من المناسبات :

— إنى لم اذق الخمر قط يامولاى فقال جلالته ، وهو يكرر كلمة قط التى « قلقل » فيها زكى باشا القاف كأحسن ازهرى :

— وأنا أيضا يازكى باشا لم اذق الخمر قط !

فأبدى ناظر الخاصة بعض امارات الدهشة ، فقال له الملك متعجبا :

— ألا تصدق ما أقول ؟ فأجاب زكى باشا .

— عفوا يامولاى . فاذا قلت عن نفسى انى لاأشرب الخمر فقد يرجع هذا إلى أنى ابن أزهرى وحفيد أزهرى ، وحتى اذا احببت شرب الخمر فربما لم اجد ثمنها . ولكني كنت احسب الأمير الذى عاش فى بلاط ايطاليا ، وبلاط النمسا ، وبلاط الآستانة، وقضى شبابه الأول فى اوربا ، قد شرب الخمر كما يشربها الجميع هناك . فقال جلالة الملك :

— لم اذقها فى شبابى . وحافظت على هذه السنة ، حتى عندما زرت ملوك أوربا فى رحلاتى الأخيرة . فقال زكى باشا :

— من الغريب إننا كنا — ونحن أقرب المقربين لك — نظن أن امتناعك عن شرب الخمر ، واستبدال الماء بها فى الأنخاب الرسمية ، إنما كان من باب السياسة . ولكنى الآن فقط ادركت أنها طبيعة أصيلة فى جلالتكم . فعلق جلالته على هذا بقوله :

— وكيف نسيت انك ناظر خاصتى ، وانك تتولى الصرف على شئون قصورى . فهل فى باب المصروفات بند لمشترى خمور

اللهم إلا إذا زارنا ضيف اجنبي كبير نحب أن نجامله!. فقال ناظر الخاصة :

— هو كذلك يا مولاى .

ولم يكن جلالة المليك الراحل مبذراً ،وكان يعرف قيمة المال ، وكيف يجب أن ينفق في الأمور المفيدة ، فأكثر نفقاته كانت على تعليم بعض الشبان ، ومشترى الوثائق والمؤلفات الهامة أو النادرة . وقد غصت الهيئات العلمية بهداياه ، وعاشت على هباته . وكان إكرامه للعلماء يفوق كل تقدير .

وعلى ذكر المال نقول إن جلالته كان يطلع كل يوم على بيانين رسميين من الوزارة ، أحدهما من الداخلية عن حالة الأمن وعلى الأخص الجنايات ، وكان يهتم بالأمن في القاهرة بصفة خاصة . والثانى من المالية عن — الاحتياطى — وكلما زاد احتياطى الدولة المالي ، كان جلالته يغتبط أشد الاغتباط . وكان يكون يوما عاصفا عندما تضطر الظروف وزير مالية إلى الالتجاء لهذا الاحتياطى . . لأنه علم كيف أن سوء الحساب في عهد ابيه شوه جوانب هامة من هذه النهضة الكبرى ، فأراد جلالته أن يجعل للبلاد في عهده ميزانية ثابتة مستقرة ، معتمدة على مال موفور يزيد على الدوام ولا ينقص .

وما أكثر ، وما أدق حساب جلالته لوزرائه . . حدث مرة أن ذهب وزير الزراعة فى احـدى الوزارات إلى القصر للتشرف بالمقابلة فى الساعة الثالثة والنصف لعرض أعمال وزارته . ووصل الوزير إلى القصر قبل الموعد ، فرجا الحاشية ألا تبلغ جلالة الملك بوصوله حرصاً على راحته حتى يأتى الموعد المحـدد . فقال رجال الحاشية للوزير إن جلالة الملك لا يستريح بعد الغداء ، وزميلك وزير الداخلية فى الحضرة الملكية من الساعة الثانية والنصف . . و بعد حين أقبل وزير الداخلية مبهور الانفاس ، بادى الاعياء ، وقات لزميله المنتظر : « اذهب يا أخى لكى تعصر كما عصرت !! » لأن جلالته كان يبحث مع وزرائه فى كل موضوع من المواضيع ، وكأنما أنفق حياته فى دراسـته والتفرغ له . وقليل هم الوزراء الذين كانوا يلمون بأعمال وزاراتهم الالمام الذى يمكنهم من مجاراة الملك فؤاد فى علمه بالدقائق والتفاصيل . . وكان حقاً ما ذكرته التيمس عنه : أن جلالته ملك ، ثم ما لبث أن حكم . . فلم يكن الملك عنده تشريفا وزهوا ، و إنما كان جهادا وعملا متصلا ، ومتابعة يقظه للكبيرة والصغيرة من الأمور . وكان جلالته يقرأ . . يقرأ أكثر من أى إنسان آخر .

فكان يطالع الصحف المصرية والأجنبية المحلية بنفسه ،

و بعض الصحف الخارجية الكبرى ، كما يطلع على ملخصات لبقية الصحف الهامة .

وكان جلالته يفضل دائما أن يقرأ بالعربية ، وأن يسمع بالعربية . وحرص على أن يتعلم ابنه وولى عهده العربية بإجادة تامة . ذلك لأنه عندما تولى العرش ، كان لايجيد الكلام بالعربية فوجه همه ، وكل هذه العزيمة الجبارة التى وهبها الله له حتى اتقن لغة البلاد قراءة وكلاما . والحرف الوحيد الذى لم ينطقه نطقاً حسناً ، هو حرف « العين » العربى . وكان إذا سمع أحد رجال حاشيته يتحدث معه بالفرنسية أو غيرها من اللغات الأجنبية ، كان يلفت نظره بلطف إلى أن يتكلم بالعربية .

وقد رتب كبار رجال قصره على النحو الآتى :

١ — رئيس ديوانه ٢ — كبير أمنائه ٣ — ناظر خاصته ٤ — كبير ياورانه .

وكان يحدد أوقاتا معينة لكبار رجاله يعرض كل منهم أعماله على جلالته بترتيب معين . ولكن إذا حدث أن أحدهم أراد التشرف بمقابلته ولم يكن مشغولاً مع أحد ، ذهب ووقف على باب مكتب جلالته حتى يتنبه لوجوده ، فيناديه .

وكان جلالته يعنى بصحته ، ولكن لم يكن يجنبها الارهاق فى

العمل ، فكان يستيقظ مبكراً جداً ، ولكنه يبقى فى غرفة نومه بعض الوقت حتى لا يقلق الخدم ، حتى إذا جاء وقت خروجه بدأ يوم عمله مبكراً ، وبدقة ونظام تامين .

ومرض جلالته مرتين مرضاً خطيراً . .

أما فى المرة الأولى ، فكانت فى أواخر سنة ١٩٣٤ ، وكانت تجربة دستور سنة ١٩٣٠ فى الاحتضار . وكان المرض فى الرئة ومع هذا ظل جلالته وثيق الصلة بمهام منصبه ، يباشرها على الرغم من نصح الأطباء ، وكان جلالته على ثقة من أنه سيستعيد صحته على عجل . ولكن المرض طال ، واذيع فى سبيل انقطاع التشريفات أن الملك مريض بالانفلونزا .

وتطور مرض الرئة إلى ضعف القلب ، فاضطر جلالته إلى ملازمة الفراش . وأصبح من الصعب إخفاء حالته . ومع هذا فقد أصر جلالته على ألا تزعج البلاد بأنباء مرضه . ولكن كانت قد اعدت فى ذلك الوقت العدة لزيارة جلالته لليونان كى يزيح الستار عن تمثال جده محمد على الكبير فى قوله ، ثم أجلت الرحلة .

ومع هذا اصر القصر على عدم اذاعة نشرة صحية عن حالته . وكان كبار الأطباء الأجانب يفدون بالطائرات من اوربا وغيرها لعيادة جلالته . فلما زاد الإلحاح فى معرفة الحالة صدر بيان موجز

عن تحسن صحة الملك . ولكن الحقيقة لم تعرف إلا من بيان اذاعة السر سيمون وزير خارجية بريطانيا لمناسبة ازمة اثارها احتكاك رئيس الوزراء اذ ذاك [عبد الفتاح يحى باشا] والمستر بترسون نائب المندوب السامى ، فقد ورد فى التصريح :

« بينما كان الملك فؤاد لسوء الحظ يعانى مرضاً خطيراً ، أثار رئيس الوزراء بعض المتاعب ... الخ »

كان جلالته يكره المرض لكل انسان ، ولكنه كان بصفة خاصة ، يعلم ان الاعباء على عاتقه ثقيلة جدا ، وان ولى عهده لايزال صغير السن ، وكانت الأزمات السياسية الداخلية تتوالى يوما بعد يوم فقاوم جلالته المرض الخطير الذى ألم به بكل شجاعة ، وبسالة ، ورغبة فى الإستمرار على اداء الواجب .

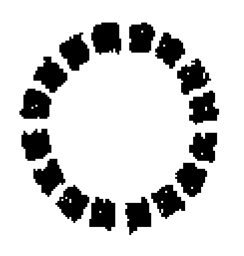
وعاش جلالته بعد هذا المرض عاما ونصف ، ثم عاوده مرة أخرى فى ابريل سنة ١٩٣٦ ، فلما اخذت النشرات هذه المرة تترى عرف الجميع ان النهاية اقتربت .

وفى الثامنة والعشرين من ابريل اسلم الملك الروح ، بعد ان حكم تسعة عشر عاما ، لم يهدأ فيها لحظة ، ولم يسترح ، ولم يتمتع باطيب الحياة ، كما يفعل غيره من الناس ، لأنه كان يحس بمسؤوليات

منصبه الخطير ازاء الأجيال المقبلة ، وازاء بيت المالك ، فكان الملك المجاهد حقا وصدقا .

كان مجاهدا ، والفرق بينه وبين هؤلاء الذين بنوا الملك بأيديهم قليل . كان مثله كمثل محمد على ، وكمثل رضا شاه ، وكمثل اتاتورك ، وكمثل ابن السعود، من اعلام المغامرة فى بناء الدول . . حقيقة تسلم فؤاد الأول العرش وارثا له ، ولكنه عمل حتى انشأه من جديد انشاء ، وحتى غير البلاد فى عهده تغييرا ما ابعد الفرق بين آخره وبين نقطة البدء التى سار فيها . .

كان جلالته من أعظم رواد الإصلاح فى تاريخ هذه البلاد . . هكذا يجب ان نفهمه ، وعندما تتاح لنا الفرصة لإتمام هذا التاريخ ستظهر هذه الحقيقة أكثر لمعانا واشراقا . .



فهرس

كتاب الشهر	دار الثقافة العامة شارع محمد على ١٦٠ بالقاهرة	كتاب الشهر
٤ ــ العدد الأول	المحرر المسؤول : محمد صبيح	مجلة نداء الحرية
١ ــ ١٢ ــ ١٩٤٤	ت ٥٤٥٩٩	المجموعة الثانية

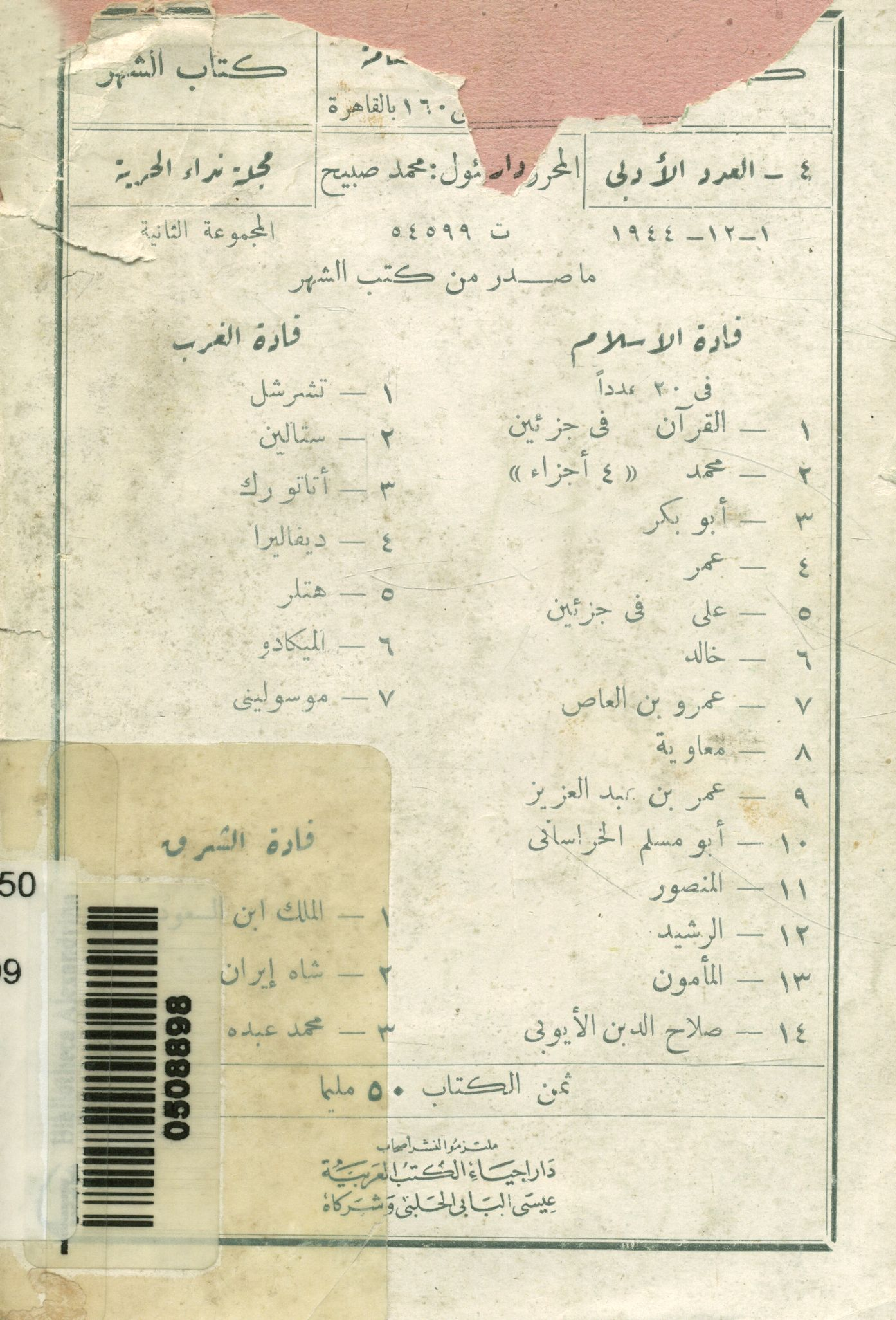
المجموعة الثانية من كتب الشهر
تصدر تباعا أول كل شهر

الملك فؤاد « صدر »	الامام محمد عبده « صدر »	مصانع فورد
الملك فيصل	المهدى	قنال السويس
الملك حسين	كتشنر	الأسطول البريطانى
الرئيس عصمت أينونو	مصطفى كامل	الأزهر
تشرشل « صدر »	سعد زغلول	كمبردج واكسفورد
روزفلت	النبى	نهر النيل
شيانج كاى شك « صدر »	عبد القادر الجزائرى	جريدة التيمس
ستالين	محمد بن عبد الكريم	تركيا
سمطس		الهند
إبراهام لنكلن		العراق
جورج واشنطن		إيران
نلسن		الأفغان

المثنى بن حارثة ــ أبو عبيدة بن الجراح ــ خالد بن الوليد ــ الحسين بن

ثمن الكتاب ٥٠ مليما

ملتزم الطبع والنشر أصحاب
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه



كتاب الشهر

... ١٦٠ بالقاهرة

مجلة نداء الحرية

المحرر ... ئول: محمد صبيح

٤ - العدد الأول

المجموعة الثانية

ت ٥٤٥٩٩

١-١٢-١٩٤٤

ما صدر من كتب الشهر

قادة الإسلام

فى ٢٠ عدداً

١ - القرآن فى جزئين
٢ - محمد « ٤ أجزاء »
٣ - أبو بكر
٤ - عمر
٥ - على فى جزئين
٦ - خالد
٧ - عمرو بن العاص
٨ - معاوية
٩ - عمر بن عبد العزيز
١٠ - أبو مسلم الخراسانى
١١ - المنصور
١٢ - الرشيد
١٣ - المأمون
١٤ - صلاح الدين الأيوبى

قادة الغرب

١ - تشرشل
٢ - ستالين
٣ - أتاتورك
٤ - ديفاليرا
٥ - هتلر
٦ - الميكادو
٧ - موسولينى

قادة الشرق

١ - الملك ابن السعود
٢ - شاه إيران
٣ - محمد عبده

ثمن الكتاب ٥٠ مليما

ملتزمو النشر أصحاب
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه